أبواب جهنم

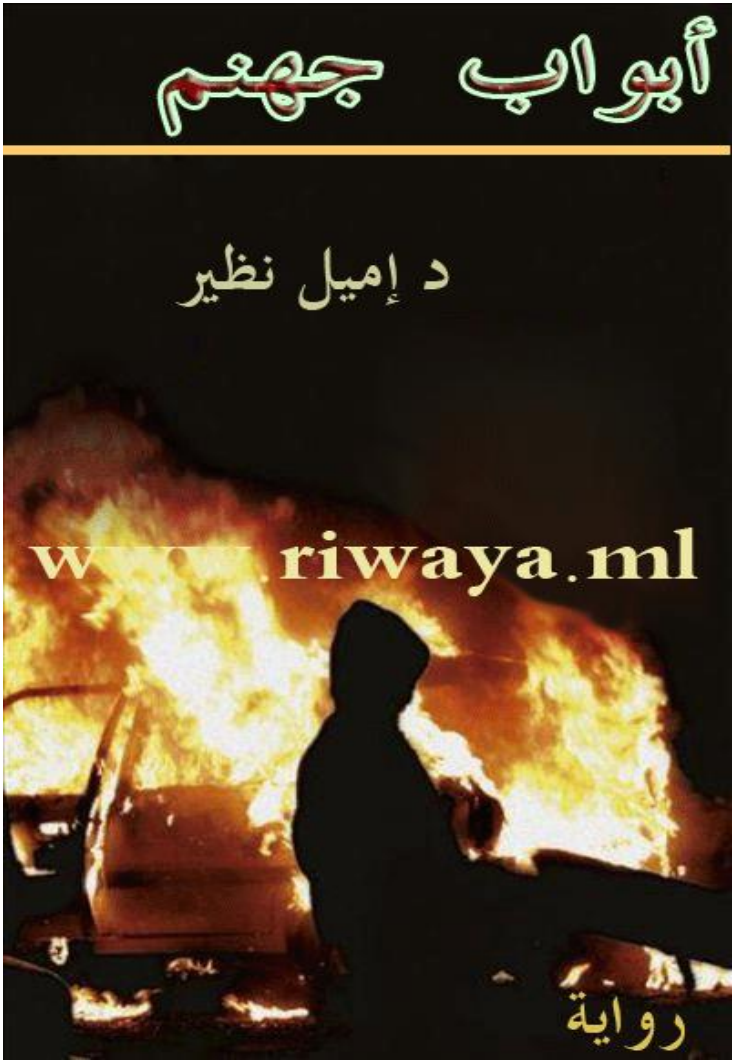

www.riwaya.ml

أبواب جهنم

(رواية)

من

تأليف

د. إميل نظير

www.riwaya.ml

ما سر ذلك الجهاز الذي قلب موازين القوى وجعل مصر أقوى دولة في العالم؟
لماذا هدد الأمريكيون بنسف القاهرة ومحوها من الوجود؟..
لماذا صدرت أوامر بتهريب الإرهابين من مديرية الأمن؟..
لماذا يطالب أحدهم بمهاجمة السفارة الإسرائيلية ومحاصرتها..
اقرأ التفاصيل الكاملة في رواية أبواب جهنم
عن قصة حقيقية حدثت بالفعل يكتبها : د.اميل نظير

www.riwaya.ml

خيم الليل بسكونه على ذلك الحي الهادئ من أحياء القاهرة الكبرى وخلت الشوارع من المارة وساد هدوء تام .. كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا حين قطع ذلك الصمت الرهيب صوت أحد حرس المبنى التي تقع به السفارة الإسرائيلية وهو يقول لرفيقه في نوبة الحراسة بصوت خافت أقرب إلى الهمس:

– يا له من عمل ممل

قال رفيقه في تهكم واضح:

– هل كنت تفضل أن تعمل في ملهى ليلي؟

وضع إحدى راحتيه أمام فمه وتثاءب ثم قال:

– كنت أتمنى أن تكون هناك بعض الإثارة و..

– الإثارة الوحيدة في عملنا هذا هي أن يهجم علينا الإرهابيون ويقتلوننا

– أكل أفكارك سوداوية هكذا؟

– أليست تلك هي الإثارة التي تتمناها؟

– لم أقصد ذلك بالطبع .. لقد أردت أن أطرد النوم الذي يهاجم جفوني بشراسة

– فلتنم إذن؟

– وأتعرض لمحاكمة عسكرية؟

– أليس أفضل من أن تتعرض للقتل؟

توقفت في تلك اللحظة سيارة صغيرة على مقربة من السفارة يستقلها خمسة من الرجال متشحون بالسواد من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم .. كانوا يغطون عيونهم بمناظير مخصصة للرؤية في الظلام .. ربت قائد المجموعة على كتف أحدهم وهو يقول:

– هيا .. فلتؤدي مهمتك وتلحق بنا هناك

هبط الرجل من السيارة في سرعة وراح يتسحب مبتعدا حتى غاب عن أنظارهم .. لوح القائد للباقين بإحدى راحتيه وهو يقول في صوت خافت:

– لا تتحركوا قبل الإشارة

ثم هبط من السيارة واقترب من المبنى في حذر حتى أصبح لا يفصله عن الحارسين سوى خطوات .. انقطع التيار الكهربائي فجأة عن الشارع بأكمله وساد ظلام رهيب .. سمع أحد الحارسين يقول لرفيقه:

– ماذا يحدث بالضبط؟

– إنه انقطاع عادي للتيار

– ألا ترى ما يحدث مريبا؟

– إنها ليست المرة الأولى

– أشعر أن تلك المرة تختلف

– يبدو أنك مازلت تبحث عن الإثارة

– كفى سخرية .. لابد وأن نستكشف ما حدث

ووضع منظاره المخصص للرؤية في الظلام على عينيه ونظر نحو زميله .. فوجئ به ملقا على الأرض انحنى نحوه في قلق بالغ وراح يتفحصه وهو يقول في لهفة:

– ماذا حدث؟

لم ينبس زميله ببنت شفة ولكن الرد جاءه من الخلف .. كان قائد المجموعة المتشحة بالسواد يوجه نحوه مسدسا وهو يقول في صرامة:

– حدث ما سيحدث لك بالضبط يا صاح

قال الحارس في فزع:

– من أنت؟ .. وماذا تريد؟

ضغط الرجل زناد مسدسه بلا تردد ليسقطه إلى جوار زميله ثم جذبه وزميله منحيا إياهما جانبا ثم خرج من المبنى ولوح للآخرين بإحدى راحتيه وهو يقول بصوت خافت:

– هيا .. أسرعوا

غادر رجاله السيارة في سرعة وحذر وراحوا يتسللون عبر الظلام الحالك حتى وصلوا إليه فتقدمهم يصعد السلم متجاهلا المصعد تماما حتى اقترب بهم من الطابق الذي تحتله السفارة فالتفت نحوهم وهمس في لهجة آمرة:

– أمنوا الطريق

انتشر الرجال في كل مكان وراحوا يطلقون مسدساتهم على كل من وضعه حظه العاثر في طريقهم من حرس السفارة ثم عالج أحدهم باب السفارة وما أن انفتح حتى انتشر الرجال في غرف السفارة وراحوا يطلقون مسدساتهم على

النيام من موظفي السفارة بينما تبعهم قائدهم في حذر .. فجأة عاد التيار وعادت الأضواء لتلمع من جديد مما حدا بالرجال إلى أن ينزعوا مناظيرهم ومضت دقائق قبل أن يقترب أحدهم من القائد ويقول:

– لم تبق سوى حجرة السفير

– دعوا السفير لي .. إنه يحتاج إلى أسلوب خاص

وانطلق يصعد السلم نحو الطابق العلوي حيث حجرة السفير وفتح بابها في هدوء .. كان السفير يغط في نوم عميق على الرغم مما يسود السفارة من هرج ومرج اقترب الرجل منه في حذر ثم لكزه بمسدسه في عنف قائلا:

– يبدو أن نومك عميق للغاية يا سعادة السفير

استيقظ السفير من نومه مفزوعا ومد يده أسفل وسادته يبحث عن مسدسه فأمسك الرجل بيده وجذبها بعيدا ثم التقط مسدسه من أسفل وسادته وهو يقول ساخرا:

– أهكذا تقابل ضيوفك يا سعادة السفير؟

قال السفير في فزع:

– من أنت؟ .. وماذا تريد؟

– أين الفتاه يا سعادة السفير؟

– أي فتاة؟

ضربه بكعب مسدسه على رأسه في قوة وهو يقول:

– هل يكفيك هذا أم تحتاج إلى رصاصة لإنعاش ذاكرتك؟

وضع السفير إحدى راحتيه على موضع الضربة وقد ارتسم الألم على ملامحه وهو يقول:

– لا أدري عما تتحدث بالضبط

– للأسف يا سعادة السفير .. لا وقت لدينا لنضيعه معك

ودفع مسدسه نحو رقبته وهو يقول:

– من يدري ربما عثرنا على راغب في الحياة يدلنا على ما نريد

امتقع وجه السفير وهو يقول في ارتياع:

– انتظر .. فقد نتفاهم

دفع مسدسه نحو رقبته أكثر وهو يقول:

– لا أتميز بالصبر للأسف

ازدرد السفير لعابه بصعوبة ثم قال:

– إنها .. إنها في الطابق السفلي

– أين بالضبط؟

– في حجرة أسفل السلم

– والشرائح؟

– أي شرائح

دفع مسدسه نحو رقبته أكثر وأكثر وهو يقول:

– الشرائح يا سعادة السفير

– إنها شريحة واحدة

– أين هي؟

– في درج مكتبي

تألقت عينا الرجل وهو يقول:

– شكرا يا سعادة السفير .. لقد قدمت لنا خدمة جليلة وتستحق مكافأتنا

وضغط زناد مسدسه بلا تردد ..

بلا تردد مطلقا

* * *

– هيا يا رجال .. هدفنا يكمن خلف هذا الباب

لم يكد قائد المجموعة ينطق بتلك الكلمات حتى كان باب القبو قد انفتح على مصراعيه تحت وطأة ضربات رجاله القوية وظهر خلفه رجل يضم فتاتين إلى صدره كلتاهما لا تتعدى الخامسة من عمرها كانت إحداهما معصوبة العينين برباط من الشاش الكثيف أخفى ملامحها تماما .. بدا وكأن الفتاتين تختبئان في حضنه من غدر الزمان .. كانتا ترتعدان في خوف وتدفنان وجهيهما في ملابسه .. تنهد قائد المجموعة في ارتياح ثم قال في لهجة آمرة:

– أحضروهم

أسرع إثنان من رجاله نحو الفتاتين يحاولان انتزاعهما من حضن الرجل بينما تصرخان وتبكيان في مرارة والرجل يجذبهما نحوه في إصرار وهو يصرخ:

– أنتم وحوش .. وحوش

صاح قائد المجموعة برجاله:

– كفى .. أتركاهما معه

أحس الرجل ببعض الطمأنينة وخاصة مع تلك اللهجة المصرية الخالصة التي سمعهم يتحدثون بها فأيا كانوا فمن المؤكد أنهم سيكونون أرحم به من الإسرائيليين يكفيه أن يخرجوه والفتاتين من ذلك المكان الرهيب الذي لا يكن له سوى المقت والكراهية ولا يحمل له إلا ذكريات أليمة لذا فقد اتخذ قراره بأن يذهب معهم حتى إلى الجحيم ووضع قراره موضع التنفيذ وراح يطمئن الفتاتين ويهدئهما

اقترب أحد الرجال من قائد المجموعة وسلمه علبة صغيرة تحوي شريحة دقيقة وهو يقول:

– لقد وجدناها في درج مكتب السفير بالفعل

تنهد الرجل في ارتياح وهو يتمتم:

– الحمد لله

ثم أشار إلى رجاله بإحدى راحتيه وهو يقول:

– هيا يا رجال

سمع صوتا من خلفه يقول في تهكم:

– إلى أين يا رجل ؟ .. ألن تنتظر واجب الضيافة ؟

بدا وكأن الزمن قد توقف فجأة .. نظر الجميع نحو مصدر الصوت في ذهول كان أمامهم رجل في العقد الرابع من عمره وخلفه ثلاثة من الرجال يصوبون مدافعهم الرشاشة نحوهم في تحفز

– مفاجأة ، أليس كذلك؟

لم ينبس أحدهم ببت شفة .... اتسعت ابتسامة الرجل وهو يستطرد:

– يبدو أنها مفاجأة ليست بسارة

لم يتلق ردا فتابع في صرامة:

– فليلق كل منكم سلاحه

ثم ظهرت على وجهه ابتسامة مقيتة وهو يضيف:

– إلا من أراد أن يفقد حياته منكم بالطبع

ألقى الرجال مسدساتهم أرضا بينما تغص حلوقهم بالمرارة فقال الرجل في سخرية:

– يا له من منظر مؤثر! .. ولكن ماذا عن أسلحتكم النارية؟

جذب كل منهم مسدسه من بين ملابسه وألقى به أرضا

ابتسم الرجل وهو يقول في زهو واضح:

– يمكنني الآن أن أعرفكم بنفسي .. دافيد حاييم المسئول عن أمن السفارة

صمت برهة ثم تابع قائلا:

– إنكم مجموعة من الأغبياء ولعلكم تتساءلون عن السبب

لم ينبس أحدهم ببنت شفة فواصل حديثه قائلا:

– لقد كنا نراقبكم بكاميرات خفية طوال الوقت مذ ذهب أحدكم ليقطع التيار

غمغم أحدهم:

– ولكن الجميع كانوا يتصرفون بتلقائية

– هذا لأننا لم نطلع أحدا على الأمر .. حتى السفير نفسه لايعلم شيئا .. وهنا تكمن العبقرية

ثم ابتسم في خيلاء وهو يقول:

– لعل أكثر ما يحيركم هو لماذا تركناكم حتى تصلوا إلى هنا؟ ولن أترككم للحيرة تقتلكم لأنني سأقتلكم بنفسي

وصمت لبرهة ثم تابع قائلا:

– لقد أردنا أن نعرف أهدافكم بالضبط .. وها قد وصلنا إلى ما نريد

ثم ازدرد لعابه وهو يستطرد قائلا:

– في الواقع لقد ساعدتمونا كثيرا في اتخاذ مثل هذا القرار خاصة مع ذلك النوع من المسدسات الذي تستخدمونه والذي يحوي طلقات مخدرة بدلا من الرصاص

ثم ابتسم في سخرية وهو يضيف:

– يبدو أنكم مجموعة من الطيبين

ثم نظر إلى الأقنعة التي تخفي ملامحهم وهو يقول:

– والآن ألم يحن وقت التعارف بعد؟

لم ينبس أحدهم ببنت شفة مما دفعه إلى مواصلة حديثه:

– يبدو أنني مضطر إلى التعرف عليكم بنفسي

ثم أشار إلى أحد رجاله وهو يقول:

– فلتشد وثاقهم حتى يمكننا أن نتعارف كما ينبغي

ثم ابتسم وهو يضيف ساخرا:

– لدينا الكثير من الوقت قد نفكر في إقامة حفل للتعارف

خرج الرجل من القبو وما لبث أن عاد حاملا حبلا سميكا واتجه نحو قائد المجموعة مباشرة ليبدأ في شد وثاقه ولكنه ما أن اقترب منه حتى ضغط

أحد الأزرار بأسفل حزام ناسف يرتديه أسفل ملابسه متعمدا أن يراه الجميع .. صرخ حاييم قائلا:

– ابتعد عنه يا رجل .. إنه يرتدي حزاما ناسفا

وأسرع يغادر القبو وخلفه رجاله ثم انبطح أرضا وفعل رجاله المثل بينما يصرخ بهم:

– فلتصوبوا نيرانكم نحو مدخل القبو ولا تدعوهم يغادرونه إلا جثثا هامدة

صوب رجاله مدافعهم الرشاشة نحو مدخل القبو ووضع حاييم كلتا ذراعيه حول رأسه لحمايته وساد صمت رهيب في انتظار الانفجار

مرت دقيقة ..

وأخرى ..

وأخرى ..

ولم يحدث الانفجار

نهض حاييم عن الأرض وهو يهتف برجاله:

– يبدو أنهم قد خدعونا يا رجال

نهض رجاله عن الأرض وتبعوه بينما يتقدمهم نحو القبو.. كان الرجال بداخل القبو فقد التقطوا مسدساتهم واتخذ كل منهم ساترا واستعد لمواجهة جديدة .. احتمى حاييم ورجاله بحائط القبو والتقط مسدسه من جرابه مصوبا فوهته إلى أعلى وهو يقول بصوت جهوري:

– فليخرج الجميع رافعين أيديهم إلى أعلى

وفي الداخل نظر الجميع نحو قائدهم ينتظرون أوامره فقال في حزم:

– لن نستسلم يا رجال

قال أحدهم في حماس:

– لن نستسلم ما دام سلاحنا في أيدينا

وقال آخر:

– سنصمد حتى النهاية

سرت قشعريرة في أجسادهم فجأة حين وصل إلى أسماعهم صوت حاييم وهو يهتف برجاله:

– فلتغرقوا القبو بالبنزين .. سأشويهم أحياءا إن لم يخرجوا

أسرع رجاله ينفذون أوامره ولم تمض ثوان حتى كانت رائحة البنزين تعبق المكان وتزكم الأنوف وما لبثت أرضية القبو أن غرقت بالبنزين تحت أقدام الرجال فهبطت آمالهم في المقاومة إلى ما دون الصفر ودب اليأس في قلوبهم مما حدا بأحدهم إلى أن يقول:

– لا مفر من الاستسلام

قال قائدهم في صرامة:

– لابد من إضاعة بعض الوقت

– كيف؟

رفع قائد المجموعة صوته حتى يصل إلى حاييم:

– سنستسلم ولكن بشروط

سمع حاييم يقول في حزم:

– شروطكم مرفوضة .. إما أن تستسلموا أو تموتوا كالفئران

– إننا لا نريد إلا بعض الضمانات

– أي ضمانات تلك؟

– أن تحسنوا معاملتنا

– حتى هذا لا نستطيع أن نضمنه

ثم أضاف في شماتة:

– فلتستسلموا بلا قيد أو شرط

تابع قائد المجموعة صياحه قائلا:

– إننا نحتاج إلى بعض الوقت للتفكير

– لا وقت لدينا

– حسنا إننا نستسلم

– فلتلقوا بأسلحتكم إذن ولتخرجوا رافعين أيديكم

مرت دقيقة لم يخرجوا خلالها مما دفع حاييم إلى أن يصرخ قائلا:

– لن أنتظر إلى الأبد .. أمامكم دقيقة أخرى لتخرجوا خلالها وإلا سأشعل المكان وأحوله إلى جحيم

نظر قائد المجموعة إلى ساعته ثم قال في حزم:

– هيا يا رجال ليس أمامنا سوى الاستسلام

ثم ألقى مسدسه أرضا وفعل رجاله المثل وخرجوا من القبو واحدا تلو الآخر رافعين أيديهم إلى أعلى وخلفهم الرجل وقد التصقت به الفتاتان في خوف بينما صوب رجال حاييم مدافعهم الرشاشة نحو الجميع في تحفز .. اقترب حاييم من قائد المجموعة ومد يده نحو حزامه وانتزعه في عنف بينما يقول:

– أأنت فلسطيني؟

ابتسم قائد المجموعة من خلف قناعه على الرغم من دقة موقفه وهو يقول:

– ربما

فحص حاييم الحزام في سرعة وهو يقول:

– حزام ناسف مزيف مثل ذلك الذي يستخدم في السينما .. خطة ذكية .. أهنئك على الرغم من فشلها

ما لبث أن لاحظ بعض الأزرار البارزة في الحزام فقال في قلق:

– ما طبيعة تلك الأزرار بالضبط؟

فجأة اقتحم المكان أحد رجال الشرطة وهو يصوب مسدسه نحو الجميع وخلفه عدد كبير من رجاله ما لبثوا أن انتشروا في كل مكان وأحاطوا بالجميع وهم يصوبون مدافعهم الرشاشة نحوهم و..

– كل في مكانه .. المكان محاصر

وبدا واضحا أن رجال الشرطة قد حسموا الأمر ..

تماما

* * *

حملق الرائد كمال فؤاد في وجه مدير الأمن في ذهول .. بدا وكأنه لا يصدق أذنيه وما لبث أن صرخ به:

– مستحيل .. مستحيل يافندم

صرخ به مدير الأمن في غضب:

– أتعصي الأوامر أيها النقيب؟

تلعثم الرائد كمال وهو يقول:

– ما تطلبه مستحيل .. مستحيل يافندم

– ليس من حقك أن تناقش .. فلتنفذ الأوامر فحسب

– كيف أنفذ أمرا كهذا؟

– لا ترغمني على تحويلك إلى محاكمة عسكرية

– إنني مستعد للمحاكمة يافندم

– لا تكن أحمقا .. إنها أوامر عليا

– فلتعطني أمرا كتابيا وسأنفذ على الفور

– هل جننت؟

– أليست أوامر عليا كما تقول؟

– بلى .. ولكنها سرية

– لن أشارك في هذا الفساد

– هل تجرؤ؟

– مادمت على حق

تمتم مدير الأمن قائلا:

– غبي

ثم التقط إحدى الأوراق وخط عليها بضع كلمات وهو يقول:

– سأوقع قرارا بنقلك إلى أسوان

ظهر الارتياع على وجهه وهو يقول:

– لماذا؟ .. لماذا تريدون قتل ضميري؟

– افهم أيها الغبي .. إنك لا ترى إلا تحت قدميك

– إنني لا أرى إلا فسادا

– لا تحكم على الأمور دون أن تعلم بواطنها

– لن أخالف ضميري أبدا

ذيل القرار بتوقيعه وهو يقول:

– فلتبق في أسوان إذن عل حرارتها تذيب ما تبقى من ضميرك

ثم مد يده نحوه بالقرار في عصبية وهو يستطرد في غضب:

– تفضل

ألتقط الرائد كمال القرار من يده وألقى عليه نظرة سريعة ثم قال:

– إنه قرار ظالم

– إنك تستحق ما هو أكثر .. إنك تستحق الشنق

– لأنني أتمسك بضميري؟

– تبا لك ولضميرك .. أتظن أنك الوحيد الذي يمتلك ضميرا؟

تمتم الرائد كمال قائلا:

– يبدو أنه كذلك

ضرب مدير الأمن سطح مكتبه بإحدى قبضتيه وهو يصرخ به قائلا:

– لقد تجاوزت كل الحدود

أحس الرائد كمال برعدة تعتري جسده إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال في عناد:

– إنني لن أسكت على هذا الظلم البين

– فلتفعل ما تشاء

– سأصعد الأمر إلى أعلى مستوى .. سأقابل وزير الداخلية .. سأذهب إلى رئيس الوزراء .. بل سأتقدم بشكواي إلى الرئيس مباشرة

– حذار أن تفعل .. إنها أوامر سرية أيها الغبي

– لن انخدع بمثل هذا الكلام

– غبي .. إنني المخطئ لأنني اخترتك منذ البداية

ثم مد يده نحوه وهو يقول:

– أعطني القرار

مد يده يسلمه القرار فألتقطه مدير الأمن وألقى نظرة بداخله ثم مزقه وألقى به في سلة المهملات وهو يقول في غضب:

– فلتغرب عن وجهي

رفع يده بالتحية العسكرية وهو يقول:

– تمام يافندم

واتجه نحو الباب يهم بالانصراف ولكن مدير الأمن صرخ به قائلا:

– انتظر

عاد أدراجه نحوه ونظر إليه في تساؤل فقال بلهجة صارمة:

– حذار أن تتفوه بهذا الأمر ولو في أحلامك .. حذار وإلا فلا تتوقع مني ذرة .. ذرة من رحمة

* * *

– اجلس أيها النقيب

جلس النقيب عادل بلال إلى أحد المقاعد الوثيرة على أحد جانبي مكتب مدير الأمن وهو يقول في قلق:

– خيرا يافندم .. يبدو أن الأمر خطير

– الأمر خطير بالفعل أيها النقيب .. لقد صدرت لنا مجموعة من الأوامر العليا بشأن مهمة صعبة لم أجد من هو أصلح منك لتنفيذها

– إنني على أتم استعداد يافندم

– إنها مهمة على قدر كبير من السرية

– ستنفذ بمنتهى السرية والدقة بإذن الله يافندم

– المهمة قد تبدو غريبة بعض الشيء ولكنها الأوامر

– ما هي المهمة بالضبط يافندم؟

– تهريب المجموعة الإرهابية التي قبضنا عليها في السفارة الإسرائيلية منذ قليل

اتسعت عيناه في دهشة ونهض عن مقعده وهو يقول:

– ماذا تقول يافندم؟

– اجلس أيها النقيب

– إنه أغرب ما سمعت في حياتي

قال في صرامة:

– اجلس أيها النقيب من فضلك

جلس النقيب عادل إلى مقعده وهو يتمتم:

– ها قد جلست

– اسمعني جيدا أيها النقيب .. إنها أوامر عليا ولابد من تنفيذها شئنا أم أبينا

– ولماذا يريدون تهريبهم؟

– الأوامر لم تصرح بذلك

– ولماذا طلبوا منا القبض عليهم منذ البداية؟

– لا أدري .. إنها السياسة بكل غرائبها وتناقضاتها

– إنها أوامر مشبوهة وتفوح منها رائحة فساد

– من يدري؟ .. ربما

– إنه فساد لا شك فيه

– لا تحكم على الأمور بالظاهر أيها النقيب

– هناك أمور واضحة لا تحتاج إلى تفسير يافندم

– إننا مضطرون لتنفيذ الأوامر دون نقاش

– لابد وأن نناقش حتى نحافظ على القانون الذي أقسمنا أن نحترمه

قال في عصبية:

– وهل نحافظ على القانون بأن نعصي الأوامر؟

– وهل نترك الفساد ليستشري في بلادنا؟

– هذا الفساد لا ذنب لنا به

– بل الذنب ذنبنا

– لماذا؟

– لأننا سكتنا عليه

قال في غضب:

– أتريدها ثورة؟ .. أليس من المحتمل أننا نحمل الأمور فوق معانيها؟
– هناك أمور لا تحتمل معان أخرى .. إنها واضحة تماما
– واضحة تماما؟
– لابد وأن أحد الإرهابيين من ذوي القرابة لمسئول كبير
– كيف لنا أن نعلم .. الأمر سر من أسرار الدولة
– تهريب الإرهابيين سر من أسرار الدولة؟
قال مدير الأمن في عصبية:
– لقد مللت هذا الأمر.. أقسم أن أحولك إلى محاكمة عسكرية ما لم تنفذ
ازدرد النقيب عادل لعابه وهو يقول:
– سأنفذ يافندم .. سأنفذ
– لابد وأن يتم ذلك بمنتهى السرعة
– لماذا لا نفرج عنهم وينتهي الأمر يافندم؟
– لأنهم يحتاجون إلى شهود على الواقعة
– ولماذا الشهود؟
– لا أدري .. إنها الأوامر
– علم وينفذ يافندم
– ولتتصرفوا وكأنكم لا تعلمون شيئا عن الأمر والجاويش المسئول عن الحجز فلتتعاملوا معه بمنتهى الحزم
– هل سنحوله إلى محاكمة عسكرية؟
– بالطبع .. لابد وأن يبدو الأمر طبيعيا تماما

– وما ذنب ذلك المسكين؟

– ذنبه أنه أهمل ولم يحبط العملية

– لماذا لا نضمه للعملية يافندم؟

– سيرتبك ويفسد الأمر

– العملية ستكون صعبة من دونه

– لهذا اخترتك بالذات

– سأكون عند حسن ظنكم يافندم .. سأكون عند حسن ظنكم بإذن الله

* * *

تفحص وزير الخارجية المصري إحدى الأوراق أمامه وارتسمت على وجهه الدهشة وهو يهتف بالسفير الإسرائيلي الذي يجلس أمامه قائلا:

– ما هذا بالضبط يا سعادة السفير

– إنه احتجاج رسمي

– لماذا يخيل إلي إذن أنه إعلان للحرب؟ .. إنه شديد اللهجة للغاية يا سعادة السفير

– ما حدث يستحق أكثر من ذلك

ثم نهض عن مقعده وهو يضيف في غضب:

– هل توقعتم أننا سنسكت على ما حدث؟

– اهدأ يا سعادة السفير

– لن أهدأ حتى تردوا إلينا كرامتنا

– تفضل بالجلوس من فضلك ولنتفاهم في هدوء

– إنني لا أريد تفاهما

أشار الوزير نحو المقعد بإحدى راحتيه وهو يقول:

– تفضل أرجوك

جلس السفير وهو يقول:

– ها قد جلسنا .. ماذا بعد؟

– ماذا حدث بالضبط يا سعادة السفير؟

– ألا تعلم ما حدث؟

– هناك تقرير من الشرطة أمامي ولكنني لا أجد به ما يثير غضبكم .. لقد توقعت منك أن تشكرنا

– علام أشكركم .. هل أشكركم على دخول شرطتكم لسفارتنا؟

– وماذا يغضبكم في ذلك؟

– لقد انتهكتم حرمة أراضينا .. السفارة أرض إسرائيلية وانتهاك حرمتها يعني إعلانا للحرب

– لقد تدخل رجال الشرطة لمساعدتكم يا سعادة السفير

– إننا لم نطلب مساعدة من أحد

– لقد كانوا يؤدون واجبهم ويحمونكم من الإرهابيين

قال السفير في عصبية:

– إننا قادرون على حماية أنفسنا معالي الوزير

تمتم الوزير قائلا:

– جزاء سنمار

– ماذا؟

– لا .. لاشيء .. كنت أقول أهذا جزاؤنا بعد أن أنقذكم رجالنا؟

– لقد كنا نسيطر على الموقف تماما حين تدخل رجالكم

ازدرد الوزير لعابه وهو يقول:

– وكيف كان لهم أن يعلموا بذلك؟

ثم تفحص التقارير أمامه وهو يستطرد:

ثم أن التقارير أمامي تؤكد أنكم كنتم مخدرون باستثناء قلة منكم

تلعثم السفير وهو يقول:

– لقد سمحنا لهم بتخديرنا حتى نعرف أهدافهم و..

– ولكن القانون الدولي يعطينا حق التدخل إذا تعرضت السفارة للخطر

قال السفير في عصبية:

– هذا إذا ما طلبنا تدخلكم

– لقد تلقى رجال الشرطة بلاغا من مجهول بأنكم تتعرضون للاعتداء ولما وصلوا إلى السفارة وجدوا كل الأبواب مفتحة والحرس مخدرون فكيف كنت تريدهم أن يتصرفوا؟

– ما كان ينبغي أن يتدخلوا في شئوننا على هذا النحو السافر مهما كانت الأسباب

– إننا آسفون يا سعادة السفير سأطلب من رجالنا ألا يتدخلوا فيما بعد حتى ولو كنتم غارقين في دمائكم

– أهذا ما تتمنون؟

– هذا ما تطلبه يا سعادة السفير

– أنا طلبت ذلك؟

– سعادة السفير .. ماذا تريدون منا بالضبط؟

– أعيدوا إلينا كرامتنا

– حسنا .. سنرسل إليكم اعتذارا رسميا

– ليس هذا بكاف

زفر في ضيق وهو يقول:

– ماذا يكفيكم بالضبط؟

– نريد الإرهابيين لنستجوبهم بأنفسنا

– للأسف يا سعادة السفير .. لم يعد هذا ممكنا

– قال في غضب:

– إننا لم نطالب إلا بحقوقنا

– إننا لا ننكر عليكم حقوقكم

– لماذا ترفضون إذن؟

– إننا لم نرفض

– ماذا يعني كلامك إذن؟

– يعني أن الإرهابيين قد تمكنوا من الهرب للأسف

احتقن وجه السفير فجأة ونهض عن مقعده وقد استشاط غضبا وهو يقول:

– لقد فعلتموها وأفلحتم .. لقد ربحتم تلك الجولة ولكن المباراة لم تنتهي بعد

نهض الوزير بدوره قائلا في غضب:

– ماذا تقصد بالضبط؟

– المعنى واضح لا يحتاج تفسيرا

– هل تقصد أننا قد ساعدنا الإرهابيين على الهرب؟

– هذا لو كانوا إرهابيين بالفعل

– ماذا تعني بالله عليك؟

– أعني أن لعبتكم قد انكشفت معالي الوزير

– أي لعبة تلك؟

– الرجال ليسوا إرهابيين معالي الوزير

– أهم مجموعة من الأبطال إذن؟

– بالنسبة إليكم على الأقل

– إنني لا أفهم شيئا

– إنهم رجالكم معالي الوزير

صاح الوزير في غضب:

– هل فقدت صوابك؟

– إنني متأكد من كل كلمة نطقت بها

– ولماذا نرسل رجالنا إلى سفارتكم؟ .. ولو كانوا رجالنا فلماذا ننقذكم من بين أيديهم؟

– إنكم لم تقصدوا إنقاذنا معالي الوزير

– ماذا كنا نقصد إذن؟

– لقد قصدتم إنقاذ رجالكم بعد أن سقطوا في أيدينا

– ألديك دليل واحد على ما تقول؟

– الطلقات المخدرة التي كانوا يستعملونها

– ماذا؟

– لو كانوا إرهابيين فلماذا لم يستخدموا الذخيرة الحية لقتلنا

– أهذا يثبت أنهم رجالنا؟

– بالتأكيد فهذا الأسلوب يتناسب وفروسيتكم التي مازلتم تتمسكون بها

– نشكرك على رأيك بنا يا سعادة السفير ولكن الأقرب إلى الواقع أن يكونوا رجالكم وهذا ما يفسر رحمتهم بكم

– ولماذا يفعل رجالنا ذلك؟

– لا أدري ما يدور في رؤوسكم .. ربما أردتم إحراجنا أمام العالم وإظهارنا بمظهر المقصر في حماية سفارتكم

– ليس هذا منطقيا بالمرة معالي الوزير

– ماذا تريدون بالضبط يا سعادة السفير؟

– الفتاه معالي الوزير

عقد الوزير حاجبيه وهو يقول في حيرة:

– أي فتاة؟

ثم صمت لبرهة استغرق خلالها في التفكير ثم قال في دهشة:

هل تقصد الفتاتين اللتين كانتا بصحبة الإرهابيين؟

– إحداهما معالي الوزير

– أيهما؟

– المعصوبة العينين

نظر الوزير إلى التقارير أمامه وهو يقول:

– إنها فتاة مصرية كما تشير التقارير

– فلتعيدوا إلينا الفتاه وينتهي الأمر معالي الوزير

– إنني أعمل في مجال السياسة منذ عشرين عاما لم أسمع خلالها من الغرائب ما أسمع الآن .. إنها فتاة مصرية يا سعادة السفير

– هل ترفضون تسليمنا الفتاة؟

– ليس بأيدينا أن نسلمكم إياها

– ماذا تعني؟

– لقد حملها الإرهابيون معهم

ضغط السفير أسنانه وهو يقول في غضب:

– تأكد أننا لن نقف مكتوفي الأيدي معالي الوزير .. سنصعد الأمر إلى أعلى مستوى .. سنتقدم بشكوانا إلى الأمم المتحدة .. سنعلنها حربا طاحنة لو لزم الأمر

– أكل هذا من أجل فتاة؟

– ستندمون معالي الوزير .. إسرائيل ليست بالخصم السهل

– ولا مصر كما تعلمون

– سأتصل بتل أبيب وسترى كيف سيكون الرد

– أتريدونها أزمة سياسية؟

– لسنا من أشعل فتيل الأزمة معالي الوزير .. لسنا من أشعل فتيل الأزمة

* * *

– ما هذا بالضبط يا معالي الوزير

أطرق وزير الخارجية برأسه نحو الأرض وهو يقول:

– إنها استقالتي يا سيادة الرئيس

– أعلم أنها استقالتك ولكن لماذا؟

– لم أعد قادرا على العطاء في منصبي يا سيادة الرئيس

– ماذا حدث بالضبط؟

– لقد سئمت ما يحدث يا سيادة الرئيس

– ماذا حدث وأغضبك منا يا معالي الوزير؟

– سيادة الرئيس .. إننا على أعتاب أزمة مع إسرائيل

– ولكن هذا كثيرا ما يحدث

– هذه المرة تختلف يا سيادة الرئيس

– ماذا تقصد؟

– لقد قدم لنا سفيرهم احتجاجا شديد اللهجة

– إنهم يضخمون الأمور دائما

– أعلم يا سيادة الرئيس ولكن ..

– ولكن ماذا؟

– في كل مرة كنت على علم بما يجري لذا فقد أمكنني التصرف و..

– وماذا عن تلك المرة؟

– تلـك المـرة يكتنـف الغمـوض الأمـر برمتـه حتـى أننـي اتصـلت بمـدير المخابرات فأنكر معرفته بالأمر تماما

– هناك أسرار تمس أمن الدولة ولا ينبغي لأحد أن يعرفها يا معالي الوزير

– ولكنها تدخل في صميم عملي .. ألا تثق بي يا سيادة الرئيس؟

– إنها ليست مسألة ثقة

– ما المسألة إذن يا سيادة الرئيس

– هذا أمر شرحه يطول ولكن تأكد أن في ذلك مصلحة مصر

– وهل من مصلحة مصر ألا أعلم عن الأمر شيئا؟

– بالضبط يا معالي الوزير

– إذن فأنا مصر على الاستقالة

– و لو أخبرتك أن مصر تحتاج إليك؟

– حياتي فداء لمصر ولكن لابد وأن تقدر موقفي يا سيادة الرئيس

– هل تريد التخلي عنا في ظل تلك الظروف؟

– إننـي كالمحـامي الـذي يجهـل كـل مـا يخـص قضـيته وبـذا يكـون غيـر ذي جدوى يا سيادة الرئيس

– ولكننا متمسكون بك يا معالي الوزير ومصرون على رفض الاستقالة

– ولكن ..

– ستنطلق الآن إلى مكتبك وستجد مدير المخابرات بنفسه في انتظارك ومعه ملف يحوي الحقيقة كاملة

نهض الوزير عن مقعده وهو يقول:

– أشكر لك تلك الثقة يا سيادة الرئيس

– لابد وأن تعلم أنك عزيز لدينا للغاية

– إنني عاجز عن الشكر يا سيادة الرئيس

ومزق الرئيس الاستقالة وألقى بها في سلة المهملات وهو يقول:

– أظن أنها قد أصبحت غير ذات معنى

ابتسم الوزير وهو يقول:

– بالطبع يا سيادة الرئيس

– ولكن ينبغي أن أذكرك أن هذا الملف سري للغاية

– اطمئن يا سيادة الرئيس

وشد الرجل على يد الرئيس ثم انصرف على الفور واستقل سيارته حيث انطلقت به إلى مكتبه وما أن ولجه حتى وجد مدير المخابرات في انتظاره كما وعده الرئيس حيث سلمه ملفا مكتظا بالأوراق كتب عليه "سري للغاية" وما أن انصرف الرجل حتى جلس الوزير إلى مكتبه .. كان يتوق إلى معرفة السر وراء ما يحدث .. فتح الملف وراح يتصفحه في لهفة وسرعان ما انغمس به حتى الثمالة ..

عاد مع الصفحات إلى خمس سنوات مضت ..

حيث كانت البداية ..

وكانت البداية مع معيد في كلية العلوم ..

معيد يدعى الشناوي ..

عمرو الشناوي

* * *

أسرع ″ عمرو الشناوي ″ المعيد بكلية العلوم بخطىً أقرب إلى العدو في ذلك الممر المؤدى إلى معامل كلية العلوم وتوقف أمام أحدها ودفع بابه ففتحه ودلف إلى الداخل بسرعة و دون استئذان وهو يهلل في فرح قائلا:

– سمير فلتهنئني الآن

قال سمير في لهفة:

– ماذا حدث يا عمرو؟

– فلتهنئني أولا وبعدها أخبرك بما حدث

– إذن فلك مني أجمل تهانيّ القلبية

– ما تلك التهنئة الفاترة يا صديقي؟

– فهل تريدني أن أرقص؟ .. ومع ذلك فإنني مستعد لو أن عندك ما يستحق

– إنه يستحق يا صديقي

قال سمير في لهفة:

– تكلم فقد أثرت فضولي

– إنه اختراع رهيب .. اختراع لا مثيل له .. اختراع سيقلب موازين القوى في العالم .. لا يسعني إلا أن أردد مع أرشميدس " وجدتها .. وجدتها .. وجدتها"

– إنني لا أفهم شيئا .. ماذا وجدت بالضبط؟

قال عمرو في حماس:

– الفكرة يا صديقي .. الفكرة

– أية فكرة؟

– اختراع سيهز الدنيا بأكملها

– إذن فقد فهمت

– ماذا فهمت؟

– بما أنه اختراع سيهز الدنيا فلابد وقد اخترعت زلزالا

قهقه عمرو وهو يقول:

– يا لخفة ظلك يا صديقي!

– دعك من هذا الآن واخبرني ماذا ابتكرت بالضبط؟

– إنه أعظم ابتكار علمي و...

قاطعه سمير قائلا:

– بالطبع كل ابتكاراتك عظيمة ولكن ماذا ابتكرت بالضبط؟ .. هل ابتكرت قنبلة نووية؟

– بل أخطر يا صديقي

– أكثر ما أكره في تلك الدنيا الألغاز والفوازير .. فإما أن تتكلم وإما أن تتركني لأكمل تجاربي

– سأخبرك بكل شيء ولكن ليس هنا

– أين إذن؟

– بينما نتناول طعامنا في مطعم الكلية

– أهي دعوة على الغذاء؟

– إنك تستحقها يا صديقي .. وهناك سأشرح لك كل شيء .. وبالتفصيل

* * *

توقف سمير عن تناول طعامه وراح يحملق في وجه عمرو وهو يقول:

– لا أصدق حرفا مما تقول

– ألا يبدو لك كلامي منطقيا؟

– ولكنه صعب التصديق ولا يعدو مجرد كلام نظري

– فلماذا لجأت إليك إذن؟

– وما شأني بالموضوع؟

– إنك صديقي ولابد أن تعينني على تجربة جهازي

– هل جننت؟

– وما الجنون في ذلك؟

– تجربة رهيبة كتلك لا يدرى نتائجها إلا الله سبحانه وتعالى

– لا داعي للقلق .. لقد حسبت كل شيء بدقة و...

– ماذا حسبت يا عمرو؟ .. إنك تتحدث عن تفجير قنبلة نووية .. لعلك قد جننت بالفعل

– هل تدرك جدوى جهاز كهذا؟ .. إنه سيقلب موازين القوى في العالم لصالح العرب .. إنه يصدر نوعا من الأشعة غير المرئية يمكنها أن تخصب أي كمية من اليورانيوم المشع حتى تصل به إلى الكتلة الحرجة

– وهل تدرك معنى أن تصل إلى الكتلة الحرجة؟

– ليس لها إلا معنى واحد .. إنه الانفجار النووي

صاح به قائلا:

– فما دمت تعلم أنه الانفجار النووي وتطلب مني أن أعينك لإجراء التجربة فليس هناك إلا احتمال واحد وهو أنك مجنون بالفعل

– لقد فهمتني بطريقة خاطئة

– وما الطريقة المثلى لفهمك يا عبقري الفيزياء؟

– إنني لا أريد صنع قنبلة نووية بالطبع .. إنها فكرة تقليدية ولا تفيدنا في هذا العصر النووي

– وماذا تريد إذن؟

– أريد أن تكون كل قنبلة نووية على وجه الأرض ملكا لنا

فغر فاه في دهشة ثم هتف به قائلا:

– مجنون

–اسمعني يا صديقي وسأشرح لك كل شيء

– كلي آذان صاغية

– لقد اتفقنا أن جهازي قادر على تخصيب اليورانيوم والوصول به إلى الكتلة الحرجة وبالتالي إلى التفجير النووي

– بالضبط

– إذن فأي مكان في العالم يحوي قنبلة نووية أو مفاعلا نوويا به كمية من اليورانيوم يصبح ملكا لنا ويمكننا أن نفجره بمجرد أن نوجه إليه أشعتنا

فكر سمير مليا ثم نظر إلى عمرو وهو يقول:

– يبدو أنك عبقري بحق يا صديقي

– إذن فقد فهمتني

– تماما يا صديقي .. تماما

* * *

جلس عمرو إلى المقعد المجاور لسمير الذي يقله في سيارته في استرخاء وهو يقول:

– والآن يا صديقي لم يبق لنا سوى التجربة

ضغط سمير فرامل سيارته في قوة فأصدرت عجلاتها صريرا مزعجا وتوقفت بطريقة مفاجأة إلى جانب الطريق فصرخ عمرو به قائلا:

– هل جننت؟ .. أتريد أن تقتلنا؟

صرخ سمير به قائلا:

– أنا الذي جننت؟

– أما زلت عند رأيك بعد كل ما أخبرتك؟

– فلتفهم يا صديقي .. ما تطلبه مستحيل .. مستحيل

– لماذا؟

– لأنك ببساطة لو جربت جهازك ستتحول إلى سفاح

صاح به في غضب:

– ماذا تقول؟

– أقول الحقيقة التي تتناساها وتحاول تجاهلها .. ما أن تسلط أشعة جهازك على أي مفاعل حتى ينفجر مخلفا ملايين الضحايا الأبرياء وبعدها يأتي دور الإشعاعات التي تدمر كل شيء حتى الزرع والشجر و..

قاطعه قائلا في وجوم:

– ولكن معنى كلامك أن أتخلى عن اختراعي

– هذا أفضل ما تفعل يا صديقي

– ولكن هذا الاختراع سيجعل من مصر أقوى دولة في العالم وحينئذ يمكنها فرض إرادتها وحل كل القضايا العربية العالقة .. يمكننا أن نجبر اليهود على ترك فلسطين وكل الأراضي العربية المحتلة .. يمكننا أن نجبر الجميع على احترامنا وإعادة حقوقنا كاملة

– ولكن ما الثمن يا صديقي؟ .. ألا تفكر في ملايين الضحايا؟

– وهل فكر الأمريكان قبل أن يلقوا بقنبلتيهما النوويتين على هيروشيما وناجازاكي؟

ظهر على وجهه التأثر والامتعاض وهو يقول:

– وهل سيطاوعك ضميرك على تكرار تلك الكارثة؟

– فماذا أمامي من سبيل؟

– بل أمامك .. أمامك أن تنسى الموضوع برمته وتحطم جهازك بيدك قبل أن ينمو الشر بداخلك ويخدعك شيطان العظمة فتحدث الكارثة

– ولكنني بذلك سأضيع على بلادي فرصة لكي تصبح أعظم بلاد الدنيا

– العظمة التي تأتي على الجثث والأشلاء هي نوع من الخسة

– ما رأيك في أن نجرب سلاحنا على مفاعل ديمونة بإسرائيل؟ .. يمكننا من طابا و...

– وما ذنب الأبرياء الذين ستقتلهم؟

– أتسمي هؤلاء أبرياء؟ .. إنهم أعداؤنا ولو تبدلت الأدوار ما ترددوا لحظة واحدة في تجربة السلاح علينا .. ثم هل نسيت فلسطين؟ .. إنهم يستحقون أكثر من ذلك

– فكر بعقلانية يا صديقي .. إن حكوماتهم عدوانية ولكن الشعب هو من سيدفع الثمن .. ثم أنه تربطنا بهم معاهدة سلام وما نقضت مصر عهدا قطعته على نفسها قط .. ثم لو أنني وافقتك على ما تقول سنكون أول من يتلقى الإشعاعات .. إننا الأقرب إلى حدودهم

– لست أدري لماذا تثبط من عزيمتي؟ .. إنها الغيرة .. إنك تغار من نجاحي و...

قاطعه قائلا في غضب:

– أنا؟ .. أنا أغار من نجاحك؟

– نعم .. والغيرة تعميك و تنسيك الصداقة

ثم فتح باب السيارة وهبط منها وأغلق بابها في عنف وهو يصيح مستطردا:

– إنني لا أحتاج إلى مساعدتك .. سأعتمد على نفسي

هتف به قائلا:

– انتظر يا عمرو.. انتظر أرجوك

وفتح باب السيارة ثم هبط منها وراح يعدو خلفه ولكن عمرو أوقف إحدى سيارات الأجرة واستقلها وانطلقت به على الفور .. توقف سمير عن العدو وضرب كفا بكف وهو يقول:

– هذا الغبي سيدمر الدنيا .. سيدمر الدنيا بأسرها

* * *

طرق عمرو باب أحد معامل الفيزياء بكلية العلوم طرقات خفيفة وانتظر حتى سمع من يدعوه للدخول وفتح الباب في هدوء ودلف إلى الغرفة وهو يقول مهللا:

– هل سمعت آخر الأخبار يا سمير؟

أجابه سمير في سخط:

– لم أسمعها ولا أريد سماعها

– أما زلت غاضبا مني؟

– وهل فعلت ما يغضب؟

ربت عمرو على أحد كتفيه وهو يقول:

– إنني آسف يا صديقي .. لقد كنت أعاني توترا عصبيا و..

– لا عليك .. لقد نسيت ما حدث .. ماذا تحمل من أخبار؟

– سأخبرك ولكن ليس قبل أن تدعوني على زجاجة من الكولا المثلجة

– هذا إن كانت أخبارك تستحق

– اطمئن يا صديقي .. إنها تستحق أكثر من الكولا بكثير

– تكلم إذن

– لقد تم اختياري وإياك ضمن البعثة التي ستسافر إلى الاتحاد السوفيتي لنيل درجة الدكتوراه

صاح في فرحة غامرة:

– غير معقول .. هل أنت متأكد؟

– تماما يا صديقي

– أنت رائع .. إنك تستحق أكثر من الكولا بكثير

– فماذا أستحق إذن

– تستحق الذبح

– ماذا؟

– أقصد أنك تستحق أن أذبح لك

– إنني أكتفي بالكولا

– فورا يا صديقي .. فورا

* * *

جلست ريهام في الطائرة إلى مقعد بجوار النافذة والى جوارها زوجها عمرو.. كانت في قمة سعادتها وهي ترقب السحب وقد تناثرت في كل مكان .. نظرت إلى زوجها وهي تقول:

– وكأن الطائرة لا تتحرك .. لا أكاد أشعر بحركتها

– هل اقتنعت الآن؟

تأبطت أحد ذراعيه وهي تقول:

– لقد كنت مرعوبة .. إنها المرة الأولى و...

قاطعها قائلا:

– ينبغي أن تثقي بي فيما بعد

نظرت إليه في وله وهي تقول:

– ما دمت معك فلن أخشى شيئا

اهتزت الطائرة فجأة في قوة فأمسكت بذراع زوجها في خوف وضمت نفسها إليه في قوة .. أسرع عمرو يربت على احد كتفيها ويطمئنها قائلا:

– اهدئي يا حبيبتي .. إنه مطب هوائي فلا تخافي

عادت إلى هدوئها سريعا واتكأت برأسها على كتفه قائلة:

– حتى ولو مت .. يكفيني أن أموت إلى جوارك

– فداك نفسي وروحي يا حبيبتي

– بل إنني أفديك بحياتي

– إنني أسعد إنسان على وجه الأرض

ابتسمت وهي تقول:

– وأين وجه الأرض الآن؟

– إذن فأنا أسعد إنسان على وجه السماء

– وأنا أسعد إنسانة لأنني إلى جوارك

مرت لحظات من الصمت فأغمضت ريهام عينيها وما لبثت أن راحت في نوم عميق استمر طوال الرحلة ولم يوقظها سوى هزة خفيفة من زوجها وهو يقول:

– حبيبتي

– دعني أنام .. أرجوك

– استيقظي .. لقد وصلنا

نهضت عن مقعدها وراحت تعدل من وضع فستانها وهي تقول:

– هيا بنا إذن

ضحك قائلا:

– هل سنهبط بالمظلات؟

– ألم تقل أننا وصلنا؟

– لقد كنت أقصد أننا على وشك الوصول ولابد أن نربط الأحزمة لا أن نفكها ونهبط بالمظلات

ألقت نظرة سريعة عبر النافذة .. ثم وضعت إحدى راحتيها على فيها وانفجرت ضاحكة

* * *

جلس عمرو إلى أريكة وثيرة في ردهة شقته الصغيرة التي استأجرتها له الجامعة في قرية صغيرة بالقرب من مفاعل تشير نوبل بالإتحاد السوفيتي حيث يتلقى تدريباته مع زملائه وجلس سمير إلى أريكة مقابلة والى جواره زوجته هناء بينما انحنت ريهام تصب فناجين الشاي وراحت تقدمها لضيوفها وما أن انتهت من ذلك حتى جلست إلى جوار زوجها وراح الجميع يتجاذبون أطراف الحديث ويتضاحكون ويتنقلون من موضوع إلى آخر حتى قال عمرو لزوجته:

– ألن تعدي لنا طعام الغذاء يا حبيبتي؟ إننا نكاد نموت جوعا ثم أن ضيوفنا قد بدءوا يتساءلون إن كان لدينا طعاما أم سيضطرون إلى التهامنا

نهضت ريهام عن مقعدها وهي تقول:

– اطمئنوا يا جماعة .. كل شيء جاهز على التسخين

قال عمرو مبتسما:

– فلتبدئي إذن بالتسخين قبل أن يبدءوا في التهامنا

قالت ريهام وهي تهم بالذهاب إلى المطبخ:

– أستأذنكم يا جماعة

نهضت هناء وهي تقول:

– سآتي معك لأساعدك

– لا داعي لتعبك يا عزيزتي

– لن أتعب يا عزيزتي .. سنتسلى بالحديث أثناء تحضير الطعام

انطلقتا كلتاهما إلى المطبخ بينما نهض عمرو من مجلسه واتجه نحو النافذة ولحق به سمير حيث وقفا جنبا إلى جنب

– الأيام تمر سريعا يا صديقي

– بالفعل .. لقد مر علينا ثلاثة أشهر منذ جئنا إلى الاتحاد السوفيتي .. مروا بسرعة البرق

– أشعر أن الله قد أرسلني إلى هذا المكان لحكمة يعلمها سبحانه

– ماذا تعني؟

– أعني أن الله قد أراد لي أن أنفذ تجربتي

– ماذا تقول يا عمرو؟

– أقول أن المكان مناسب لإجراء التجربة

– هل جننت؟

– لقد قررت أن أجري تجربتي و...

قاطعه صارخا:

– أقسم ألا أتركك لجنونك .. إنك ستدمر كل شيء

أسرعت ريهام وهناء تعدوان نحوهما .. قالت ريهام في دهشة:

– ماذا حدث يا جماعة .. هل تتشاجران؟

قال عمرو في ارتباك:

– أبدا .. لقد كنا نتناقش في موضوع هام فعلا صوتنا

انطلقت السيدتان عائدتين إلى المطبخ بينما نظر عمرو إلى صديقه وهو يقول:

– فلتسمع وجهة نظري في هدوء وتحكم في النهاية

زفر سمير في ضيق وهو يقول:

– ما هي وجهة نظرك يا صديقي؟

– لقد أجريت حسابات دقيقة فوجدت أن المدة المطلوبة لتخصيب اليورانيوم والوصول إلى الكتلة الحرجة وبالتالي إلى التفجير النووي هي عشرون ثانية بينما سنوجه أشعتنا لخمس ثوان فحسب لنعرف ماذا سيحدث آنذاك

صاح به في غضب:

– أما أخبرتك أنك مجنون؟

– اهدأ يا صديقي ولنتناقش نقاشا علميا

– عد إلى رشدك يا صديقي .. إنك تريد أن تجري تجربة لا يعلم عواقبها إلا الله .. ثم أنهم هنا في الاتحاد السوفيتي لو علموا بالأمر سيعدمونك بلا محاكمة .. لن تجد لديهم ذرة من رحمة .. إنهم لا يتهاونون في مثل تلك الأمور

– وكيف لهم أن يعلموا؟ .. لا تنسى أن أشعة جهازي غير مرئية .. ثم إنني سأجري تجربتي من هنا .. من نافذة منزلي .. ثم أن هذه الأشعة ذات تردد قصير للغاية مما يمكنها من اختراق جدران المفاعل والعمل على ما به من يورانيوم

قال في سخط:

– أما زلت مصرا على هلاكك وهلاكنا؟

– سأجرب لخمس ثوان فحسب

– فكر يا صديقي في المأساة التي قد تحدث .. فكر في الأبرياء الذين ستحكم عليهم بالموت

– صدقني لن يحدث شيء .. إنني واثق من حساباتي

– وما الجدوى إن كنت متأكدا أن شيئا لن يحدث .. ثم أن حساباتك نظرية قد تخطيء وقد تصيب .. فكر يا صديقي .. حكم ضميرك .. لا يأخذك شيطان العظمة

– إنها فرصة لن تتكرر

– لماذا لا تفكر فيما يفيد البشرية؟ .. الدنيا لا تحتمل المزيد من الأسلحة

– ولكننا سنحرم مصر من فرصة رهيبة لتصبح أقوى دولة في العالم .. فكر يا صديقي في الرفاهية التي سنعيش فيها .. فكر في مستقبل باهر لمصر .. فكر في الملايين التي سنجنيها من سلاحنا .. فكر في المجد .. في جائزة نوبل

– بل فكر أنت في الملايين من الضحايا .. فكر فيما سيذكره عنك التاريخ من أنك سفاح .. ثم أن جائزة نوبل لا تمنح أبدا لمن يخترع سلاحا

– إنه ليس سلاحا .. الأسلحة موجودة بالفعل .. وجهازي لن نستخدمه إلا للدفاع عن أنفسنا .. يمكننا تثبيته في أحد الأقمار الصناعية لحماية مجالنا الجوي ضد أي هجوم نووي محتمل .. تصور طائرة تحمل قنبلة نووية تريد إلقائها علينا حينئذ يمكننا نسفها في الفضاء وقبل أن تدخل مجالنا الجوي تصور ملايين البشر الذين يمكننا إنقاذهم

– وهل من المنطق لننقذ ملايينا من البشر في المستقبل من أحداث قد لا تحدث أن نقتل ملايينا منهم الآن؟

– صدقني .. لغة العالم الآن هي لغة القوة .. وما لم نكن أقوياء سيطمع بنا أعداؤنا.. فلتقرأ التاريخ يا صديقي .. لابد أن يكون هناك توازن قوى وإلا فالموت للأضعف .. الآن يقف العرب جميعا عزل في مواجهة الترسانة النووية الإسرائيلية .. صدقني هذا الجهاز وحده سيعيد التوازن ويرجح كفة العرب

– وضميرك كيف ستخدره؟

– هذا هو أهم عيوب الشعوب العربية .. إنهم يتبعون عواطفهم وضمائرهم ولا يتبعون المنطق وما ينم عنه واقع الحياة

– إنني أرى أن هذا سر عظمتهم

– كل حر فيما يرى يا صديقي

– بل لست حرا .. حريتك تنتهي حين تبدأ حرية الآخرين .. فلا تدمر الملايين بحجة أنك حر

– ولكن ما تطلبه صعب .. صعب يا صديقي

– أرجوك يا عمرو.. فكر في زوجتك .. فكر في أصدقائك .. فكر في الأبرياء الذين لا يبغون من الحياة سوى أن يعيشوا في سلام .. حينئذ ستقوم من تلقاء نفسك وتحطم جهازك

– حسنا يا صديقي .. لقد ..

قطعت ريهام حديثهما وهي تقترب قائلة:

– الطعام جاهز يا جماعة .. هيا

وراح الجميع يأخذون أماكنهم على المائدة ويتناولون طعامهم في نهم بعد أن نال الجوع منهم فأنساهم ما عداه ..

تماما

* * *

ما أن خلا عمرو إلي نفسه في حجرته حتى غرق في أفكاره تماما .. لماذا أصر على استشارة ذلك المعتوه؟ .. إنه من ذلك النوع الغبي الذي يفضل التمسك بضميره عن انتهاز الفرص التي تتيحها له الدنيا .. نعم إنه غبي .. إنه لا يفكر في مصلحة بلاده .. إن أهم ما يشغله هو أن ينام مرتاح الضمير .. فلينم مليء جفونه إذن وليتركني لأخدم بلادي وأخدم نفسي .. إنه ولاشك إنسان حاقد .. عقليته الضعيفة لا يمكنها أن تباري ذكائي .. إنه يغار مني ويحسدني .. يثبط من عزيمتي لأظل باحثا مغمورا مثله .. لا يريد

لـي أن أظهـر وأشـتهر .. أيريـدني أن أتـرك المـال والشـهرة فقـط لأنـام مرتـاح الضـمير؟ .. ثـم مـا هـو الضـمير؟ .. إنـه شـيء يجـذب صـاحبه دومـا إلـى الخلـف .. لـو تمسـك الأمريكـان بضـميرهم لمـا ألقـوا بقنبلتـين نـوويتين علـى اليابـان ولمـا أصـبحت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة أقـوى دولـة فـي العـالم .. عندما يتطرق الأمر إلى مصلحة الدول يلغى كل شيء حتى الضمير .. أين كان ضمير بريطانيا العظمى الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس حين شنت حربا طاحنة على الصين وقتلت الملايين فقط لأن الصين حاولت منعهم من ترويج المخدرات بأراضيها؟ .. أين كان ضمير الدول الاستعمارية وهي تحتل الأراضي وتستعبد الشعوب وتنهب خيرات الأمم؟ .. إن من يفكر في الأخلاق والضمير سيظل في آخر الصفوف لا حول له ولا قوة ليس عليه إلا أن يصفق في قوة لمن انعدم ضميرهم .. وإذا تعب وكف عن التصفيق ألهبوا ظهره بسياطهم .. الدول لا تتحدث عن الضمير إلا فيما يخدم مصالحها فإذا تضررت تلك المصالح نسوا كل المبادئ ونسوا الضمير .. لقد أصبح اقتصاد بريطانيا أعظم اقتصاد في العالم من تجارة الرقيق وبعد أن شبعوا واكتفوا راحوا يباهون العالم بأنهم أول من حرم تلك التجارة وأخذوا يناشدون ضمير العالم ليكف عن تلك التجارة الخسيسة .. عجبا!.. ألم تصبح تلك التجارة خسيسة إلا بعد أن اكتفوا منها؟ .. إن ضمير العالم مصنوع من المطاط يجذبونه فينجذب في أيديهم ويرخونه فيرتخي .. أين ضمير العالم وهو يرى شعبا بأكمله وقد شرد من وطنه؟ .. ألا يسدون آذانهم عن صراخ الشعب الفلسطيني المسكين؟ .. إنه عالم بلا ضمير .. فلنتعامل

معه إذن بلا ضمير فلا يفل الحديد إلا الحديد .. الفرصة أمامنا لنسود العالم .. لا ينبغي أن نضيعها باسم الضمير.. فلنتعامل مع الواقع .. العالم لا يحترم إلا القوي ولا يتعامل إلا بمنطق القوة .. إنها العملة السائدة .. فلنكن الأقوى إذن حتى نحل مشاكلنا ونستعيد حقوقنا المنهوبة وأراضينا المسلوبة

انتبه من شروده وأسرع يفتح خزانة خشبية في حجرته أخرج منها جهازا شبيها بالتلسكوب راح يثبته على إطار النافذة السفلي ويوجهه نحو مفاعل تشير نوبل .. أسرع يثبت طرفه في مصدر للكهرباء وضبط مؤشره على خمس ثوان ثم راح يحملق في مفتاح الجهاز ثم قرب إحدى يديه نحوه في تردد ثم ما لبث أن أبعدها في سرعة وقد شعر بقشعريرة تسري في كل بدنه ظل في تردده لحظات ليست بالقليلة ثم ما لبث أن حسم أمره أخيرا وضغط المفتاح .. وفي تلك المرة ضغطه بلا تردد ..

مطلقا

* * *

استيقظ عمرو من نومه مفزوعا في الصباح على إثر طرقات قوية على باب شقته ورنين متواصل من جرس الباب .. لاحظ أن زوجته قد استيقظت قبله وقد بدا عليها الذعر.. نهض عن فراشه وهو يهدئ من روعها قائلا:

– اطمئني .. سأذهب لأرى من بالباب

أجابته في رعب:

– سأذهب معك .. فإما أن نعيش سويا أو نموت سويا

– لن يصل الموضوع إلى هذا الحد .. لابد وأنها دعابة من أحد الأصدقاء

– دعابة؟ .. إنها أسخف دعابة سمعت بها في حياتي

– اهدئي وسأرى ماذا يحدث؟

أسرع نحو الباب في خطوات أقرب إلى العدو وهو يهتف قائلا:

– إنني قادم يا من بالباب

ازدادت الطرقات على الباب فأسرع يفتحه وما أن فعل حتى فوجئ بسمير يكيل له لكمة أودعها كل قوته .. لكمة انتزعته من مكانه وألقت به أمتارا إلى الوراء وأسقطته على الأرض .. أسرع ينهض من سقطته وهو يضع إحدى راحتيه على موضع اللكمة بينما يصرخ في غضب:

– هل جننت؟

صرخ سمير به قائلا:

– بل أنت الذي جننت يا معدوم الضمير

– إنني لا أفهم شيئا .. لماذا تتصرف معي بمثل هذا الجنون؟

– ألا تدري لماذا؟

جذبه من ملابسه نحو التلفاز ثم أسرع يديره ويضبطه على إحدى القنوات الإخبارية وهو يقول:

– فلترى أخبار جرائمك في كل مكان عل ضميرك يستيقظ

حملق عمرو في الشاشة بذهول .. كان مذيع نشرة الأخبار يقول في أسى:

– هذا وقد وقعت بالأمس كارثة مروعة في الاتحاد السوفيتي .. حدث تسرب إشعاعي خطير من مفاعل تشير نوبل وقد أدى التسرب إلى آثار في منتهى الخطورة .. ويعد هذا التسرب الأول من نوعه منذ الحرب العالمية الثانية

وانفجار قنبلتي هيروشيما وناجازاكي .. لقد وقف العلماء حائرون لا يجدون تفسيرا لهذا التسرب الخطير مع كل الاحتياطات التي يتخذونها .. اتهم بعض المسئولين العاملين في المفاعل بالإهمال إلا أن مصدر مسئول نفى ذلك تماما وأكد أنهم يتبعون نظاما محكما ويتخذون كافة الاحتياطات .. هذا وقد كلف الرئيس السوفيتي لجنة خاصة لإجراء التحقيق واتخاذ التدابير اللازمة التي من شأنها منع حدوث مثل تلك الكارثة في المستقبل

اندفعت ريهام إلي الردهة وهي تصرخ قائلة:

– وما ذنب عمرو فيما حدث؟

– سليه يا سيدتي.. سليه ما ذنبه؟.. سليه أين ذهب ضميره؟

ثم نظر إلى عمرو وهو يصفق بيديه قائلا:

– أحسنت .. أحسنت يا عبقري الفيزياء .. الآن أنت أعظم علماء جيلك .. لقد تأكدت عبقريتك أخيرا .. ولكن ما الثمن؟ .. الثمن لا يهم .. مجرد بضعة آلاف من البشر.. لقد قتلت الضمير بداخلك ولن تقوم له قائمة بعد الآن .. لقد دمرت نفسك ودمرتنا معك .. ليس هذا فحسب .. لقد تسببت أيضا في ضياع مستقبلنا

– مستقبلنا؟

– نعم يا عبقري لقد اتصل بي مندوب السفارة وأبلغني أنهم مضطرون لإلغاء البعثة حفاظا على حياتنا وعلينا أن نستعد للمغادرة على الفور .. لا مستقبل ولا دكتوراه والله أعلم بما ستفعله بنا الإشعاعات التي أطلقتها .. حسبي الله ونعم الوكيل .. حسبي الله ونعم الوكيل

خطا عمرو نحوه وهو يقول في شبه انهيار:

– إنني لم أكن أقصد

صرخ به قائلا:

ماذا كنت تقصد إذن؟ .. أكنت تقصد تفجير المفاعل وتفجيرنا؟

–اسمعني أرجوك

– ماذا تريد أن تقول؟ .. كيف يمكنك أن تبرر جريمتك الشنعاء تلك؟ .. كيف ستواجه ربك وهو يسألك عن عباده وما فعلت بهم؟ .. كيف؟

– صدقني أنا ..

– أنت ماذا؟ ألا تتقي الله؟

– أرجوك يا صديقي .. اسمعني

– أرجوك لا تقل" صديقي" .. إنني لا أحتمل تلك الكلمة من سفاح مثلك

اقتربت ريهام من زوجها وهي تصرخ به من بين دموعها:

– لا أكاد أصدق أذناي .. أأنت فعلا من فعل ذلك؟ .. قل لست أنا وسأصدقك .. قل أرجوك

أطرق عمرو برأسه نحو الأرض وقد بدا عليه الحزن والأسى .. كان وجهه شاحبا .. لم ينطق ببنت شفة .. راحت زوجته تهزه في عنف وهي تصرخ:

– قل أرجوك

انطلق سمير نحو الباب خارجا وهو يقول:

– حسبي الله ونعم الوكيل .. أنت المنتقم يا الهي .. أنت المنتقم الجبار

* * *

جلس عمرو إلى جوار زوجته في الطائرة .. حاول أن يتحدث إليها كثيرا ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة .. كانت تشيح بوجهها بعيدا عنه

– أرجوك .. دعيني أبرر لك ما حدث

لم يجبه سوى صمتها

– ماذا فعلت لأستحق كل ذلك .. إنها تجربة علمية ليس إلا .. إنني لم أتوقع نتائجها .. أرجوك اسمعيني .. لا تدعيني أرفع صوتي .. لو علم أحدهم لقبضوا علي وأعدموني على الفور

لم يجبه أيضا سوى الصمت بدا وكأنها قد فقدت النطق

– لماذا تحكمين علي دون سماع دفاعي؟ .. صدقيني .. الجهاز الذي اخترعته سيجعل من مصر أعظم دولة في العالم .. إنني أستحق الشكر لا الجحود

لم تستطع أن تتحمل كلماته فانفجرت في وجهه قائلة:

– يا لك من شيطان أتريد الشكر على جريمتك و..

وضع إحدى يديه على فيها وهو يقول:

– أرجوك .. اخفضي صوتك .. ستتسببين في اعتقالي

رفع يده عن فيها فقالت:

– أرجوك .. إنني لا أطيق سماع صوتك .. فلنتناقش في بيت أبي

– وهل ستذهبين إلى بيت أبيك؟

– لابد وأن أريح أعصابي بعد ما حدث

– ما أن أبيع اختراعي حتى نصبح أغنى أغنياء العالم وستجدين فيلا في انتظارك بإذن الله

صرخت به في ارتياع:

– أتريد أن تصدر هذا الشر للعالم؟ .. أما كفاك ما حدث؟

وتفجرت دموعها وراحت تبكي وتنشج وهي تضيف:

– أنت وحش .. وحش بلا ضمير

* * *

فتحت ريهام باب شقة والدها ودلفت إلى الداخل وخلفها عمرو الذي أغلق الباب وهو يقول:

– الحمد لله أن والدك ليس هنا حتى نتحدث بحريتنا .. ما هي جريمتي حتى أستحق كل ذلك؟

نظرت إليه في ارتياع وهي تصرخ:

– ألا ترى فيما فعلت من جريمة؟

صرخ بها في غضب:

– إنها تجربة علمية .. وهي لا تعني إلا أنني ..

قاطعته صارخة:

– إلا أنك وحش .. سفاح

– اختراعي هذا سيجعل من العرب قوى عظمى

– وما الثمن؟ ألا يهمك الأبرياء؟

– لكل تجربة ضحاياها

صرخت به:

– ألديك ذرة من ضمير؟ .. لقد انخدعت بك للأسف

أقترب منها ووضع إحدى راحتيه على كتفها وهو يقول:

– اسمعيني يا حبيبتي

نفضت يده بعيدا عنها وهي تقول:

– لا تقل حبيبتي .. إنك لا تحب إلا نفسك

– افهميني

انفجرت في البكاء وهي تقول:

– ماذا تريدني أن أفهم؟ .. لقد خاب أملي بك

– لقد فعلت ذلك من أجلك

– هل تتحول إلى وحش من أجلي؟

– لقد أردت أن أجلب لك مالا وفيرا يجنبك مذلة الحاجة من بعدي .. أردت لك أن تعيشي سعيدة

– أعيش سعيدة على أشلاء الضحايا؟ .. كيف أعيش سعيدة وزوجي سفاح

– لست سفاحا وإلا كان معظم العلماء سفاحين أيضا

– إنهم سفاحون .. كل من ابتكر سلاحا منهم هو سفاح

– لقد كانوا أعظم العباقرة

– بل كانوا أعظم الشياطين

– إنني أمارس عملي

– وهل عملك أن تبتكر الأسلحة؟ .. أما يكفي العالم ما به من أسلحة؟

– إنه ليس سلاحا .. إنه أداة للدفاع عن النفس

– لا تزين الواقع .. هل ما فعلت كان دفاعا عن النفس؟

– صدقيني .. لم أكن أتوقع ما حدث .. لقد حدث على الرغم مني .. إنها تجربة قد تخطئ وقد تصيب

– وكم من التجارب تنوى أن تفعل؟ .. كم من الضحايا تنوي أن تقتل حتى تتأكد من جدوى جهازك؟ .. ثم يأتي الدور عليهم ليتأكدوا أيضا

– من؟

– من سيستخدمونه أيا كانوا

– إنها مصر يا ريهام .. مصر من ستستخدمه .. ألا تودين أن ترين مصر عظيمة

– مصر ستظل عظيمة ما لم تعتد على أحد ولم تتلوث بدماء الضحايا الأبرياء .. لا أدري كيف انخدعت بك كل هذا الوقت

– لا تقس علي

– القسوة هي كل ما تستحق

– ألم تعدي تحبينني؟

– لقد قتلت كل حب بداخلي تجاهك

– لا أفهم ماذا حدث لكل ذلك

– لأن ضميرك قد مات

– أنت تعذبينني

– إنك تستحق أكثر من العذاب .. أما فكرت فيمن دمرت حياتهم؟ .. أما فكرت في ضحاياك

– أرجوك .. لن أحتمل المزيد .. ارحميني

– بل ارحمني أنت وطلقني

اتسعت عيناه في ارتياع وهو يقول:

– ماذا تقولين؟

– كما سمعت .. إنني أطلب الطلاق

– الطلاق؟

– طلقني .. طلقني أرجوك

* * *

ارتمت ريهام في حضن أبيها وراحت تبكي وتنشج ودموعها تسيل في غزارة فتغرق وجنتيها وتفيض على كتف أبيها الذي أخذ يربت على ظهرها في حنان وهو يقول:

– ألن تخبري أبيك عما بك يا صغيرتي؟

لم تجبه وإنما زادت من نحيبها فتابع حديثه قائلا:

– أرجوك يا ابنتي أخبريني .. ماذا فعل بك هذا النذل؟ .. أخبريني بما حدث وسأجعله يعتذر

– لا .. لا شيء يا أبي

– فلماذا كل هذا الحزن إذن؟

جففت دموعها وهي تقول:

– إنني متعبة من السفر فحسب

– أتخفين أسرارك عن أبيك؟

– لا .. لا توجد أسرار يا أبي .. إنه شجار عادي كثيرا ما يحدث بين الأزواج

– قلبي يحدثني أن الأمر ليس كذلك

– صدقني .. لم يحدث شيء يا أبي .. لم يحدث شيء

– فلتستريحي إذن يا ابنتي وسيكون لنا حديث آخر

أومأت برأسها موافقة وهي تقول:

– إنني مرهقة بالفعل

– حسنا .. سأرافقك إلى حجرتك

– بل سأذهب بمفردي يا أبي

نظر إليها في حنان وهو يقول:

– قدماك لا تكادان تحملانك يا ابنتي

– اطمئن يا أبي .. إنني بخير

راحت تخطو على قدميها ببطء كطفلة صغيرة تخطو أولى خطواتها في الدنيا وما أن خطت عدة خطوات حتى أحست وكأن الأرض تميد بها وأظلمت الدنيا في عينيها فجأة وسقطت فاقدة للوعي لا تشعر بما حولها .. أبدا

* * *

خرج الطبيب من غرفة ريهام وخلفه الأستاذ حامد يحث الخطى ليلحق به وهو يقول:

– خيرا يا دكتور؟

– اطمئن يا أستاذ حامد .. ولترقص فرحا

قال في دهشة:

– أرقص فرحا؟

– نعم ترقص فرحا

– هل تقصد ..؟

– نعم أقصد .. في الطريق إليك حفيد صغير

هتف في سعادة غامرة:

– أشكرك يا دكتور .. أشكرك بحرارة

– أود أن أنبهك إلى شيء هام

– ما هو يا دكتور؟

– الأم ضعيفة وتعاني من أزمة عصبية على ما أظن .. وهذا خطر على الجنين .. لابد من إبعادها عن أي مؤثر عصبي

– سنحاول يا دكتور

أسرع الأستاذ حامد يرافق الطبيب حتى باب شقته و شد على يده وما أن انصرف حتى أسرع نحو غرفة ريهام التي كانت مستلقية على فراشها وبادرها قائلا:

– مبروك يا ابنتي

نظرت إليه في دهشة قائلة:

– مبروك؟

هتف في سعادة:

– ولي العهد في الطريق .. أنت حامل

هتفت في سعادة:

– حامل؟

– وفي أواخر الشهر الثالث

– صحيح يا أبي؟

– لقد أكد لي الطبيب

أخذتها سعادة غامرة فأزالت الغطاء عنها ونهضت عن الفراش في سعادة وأسرعت نحو أبيها تحتضنه وتقبله ولكنها انقلبت فجأة من النقيض إلى النقيض وراحت تبكي وتجهش في حزن شديد .. ظهرت الدهشة والحيرة على وجه والدها وهو يقول:

– ماذا بك يا ابنتي؟ .. لقد كدت تحلقين من السعادة منذ لحظات .. ماذا حدث؟

ازداد بكاؤها ونحيبها .. نظر إليها في حنان وضمها إلى صدره وهو يربت على ظهرها قائلا:

– ألن تخبري أباك بما ألم بك يا ابنتي؟

– الجنين يا أبي

– ماذا به؟

– لابد أن ينزل

اتسعت عيناه في دهشة وهو يقول:

– ماذا تقولين يا ابنتي؟

ازداد انهمار دموعها وهي تقول:

– للأسف يا أبي

– ولماذا الأسف؟ .. ما الذي يجبرنا على فعل ذلك؟

– ألم تسمع ما حدث لمفاعل تشير نوبل يا أبي؟

– ومن لم يسمع بتلك الكارثة المروعة يا ابنتي؟ .. ولكن ما شأنها بنا؟

– لقد كنا هناك يا أبي

نظر إليها في ارتياع قائلا:

– هل كنتما قريبين من موقعه؟

– لقد كنا في قلب الأحداث يا أبي

– هل ..؟

– نعم يا أبي .. لقد أصابتنا دفقات من إشعاعاته

وراحت تبكي ..

دونما انقطاع

* * *

أشاحت ريهام بوجهها بعيدا عن عمرو الذي يجلس إلى جوارها على الفراش وهو يقول:

– ألم تصفحي عني بعد يا حبيبتي؟

– كيف أصفح عنك وكل شي يذكرني بجريمتك

– لا تعذبينني أرجوك .. تعلمين يقينا أنني لم أكن أقصد

– أتدمر حياة الآلاف من الأبرياء ولا تقصد ؟ .. هل رأيت البرنامج الذي أذاعوه أمس في التلفاز عن الكارثة؟

– ولكنهم كانوا يتحدثون عن إهمال تسبب في الكارثة

– لأنهم لا يعرفون الحقيقة

– ألا يحتمل أن تكون تلك هي الحقيقة؟

– ماذا تقصد؟

– من أدرانا أن ما حدث كان بفعل جهازي؟ .. ألا يحتمل أن يكون هناك إهمال بالفعل؟

– ولماذا هذا التوقيت بالذات؟

– صدفة .. مجرد صدفة

هتفت به في غضب:

– أي صدفة؟ .. إنك تحاول التنصل من جريمتك

– لست متأكدا أن ما حدث كان بسبب جهازي؟

– الحل بسيط .. اختر مجموعة أخرى من البشر وجرب عليهم ثانية

أمسك بإحدى يديها ولثمها وهو يقول:

– فلتصفحي عني يا حبيبتي .. أرجوك

– أتعدني بأن ما حدث لن يتكرر؟

– أعدك يا حبيبتي

– وأن تحطم هذا الجهاز وألا تحاول بيعه لأي كائن كان؟

– أعدك يا حبيبتي .. ولكن ..

– ولكن ماذا؟

– هل تعدينني أن ننسي ما حدث؟

– ولو نسينا ما حدث فهل ما حدث سينسانا؟

– ماذا تقصدين؟

– أقصد ابنك الذي قد يأتي إلى الدنيا مشوها

– سيأتي سليما بإذن الله

– والإشعاعات التي تعرضنا لها؟

– لقد تعرضنا لها لفترة قصيرة

– أتحاول أن تخدعني أم تخدع نفسك؟ .. لقد ظللنا تحت تأثير الإشعاع لفترة طويلة

– ولكننا احتمينا معظم داخل أحد المخابئ النووية هناك ثم أن الطفرات الجينية الناتجة عن الإشعاعات ليست مؤكدة الحدوث .. إنها تخضع للصدفة فقد تحدث وقد لا تحدث فليس كل من تعرض للإشعاع أنجب أبناءًا مشوهين وإلا كان الشعب الياباني بأكمله مشوها

– صحيح يا عمرو؟

– اقسم لك أنها الحقيقة .. فنسبة حدوث التشوه لا تتعدى العشرة بالمائة

– ولكنها ليست بالنسبة القليلة .. كيف نضمن أن ابننا لن يكون مشوها؟

– ما من شيء مضمون في حياتنا

– وما العمل إذن يا عمرو؟ .. هل سنعيش في هذا القلق حتى الولادة؟

– اطمئني يا حبيبتي .. سأصطحبك غدا إلى الطبيب وسيفحص الجنين بالأشعة فإن كان مشوها سننزله على الفور وسيعوضنا الله عنه .. أما لو كان سليما فسنحتفظ به

– لكم أتمنى أن يكون سليما .. لا أتصور أن أقتل ابني بيدي .. لا أتصور ذلك أبدا .. أبدا

* * *

كانت ريهام تعدل من وضع ملابسها خلف الستار في عيادة الطبيب بينما جلس عمرو إلى أحد المقاعد أمام مكتب الطبيب وهو يقول في لهفة:

– خيرا يا دكتور؟

– الطفل سليم تماما

تنهد عمرو في ارتياح وهو يقول:

– الحمد لله

– ولكن هذه النتيجة ليست مؤكدة

ماذا تعني يا دكتور؟

– أعني أنه من المؤكد أنه لا توجد تشوهات شكلية ولكن قد توجد تشوهات أخرى

– وضح كلامك أرجوك

– من الممكن أن تكون هناك تشوهات وظيفية

– مازلت لا أفهم شيئا

– من الممكن أن تؤثر الإشعاعات على وظيفة أحد الأعضاء فتوقفها مثل توقف المخ عن التفكير مثلا فيعاني الطفل تخلفا عقليا

قال عمرو في ارتياع:

– وكيف لنا أن نعلم أن شيئا كهذا قد حدث؟

– لا يمكننا إلا بعد الولادة

– بعد أن تحدث الكارثة؟

– الأمر برمته في يد الله وليس بأيدينا إلا أن ندعوه ليلطف بنا

– أليست هناك من طريقة يا دكتور؟

– للأسف يا أستاذ عمرو

– إذن فاحتفاظنا بالجنين مخاطرة كبيرة

– الله رحيم بعباده .. قد يكون الجنين سليما

قال عمرو في حزن:

– وقد يكون مشوها فيتعذب ويعذبنا طوال عمرنا

– توكل على الله ولن يخذلك

نظر عمرو إلى ريهام التي خرجت للتو من وراء الستار وهو يقول:

– ما رأيك يا ريهام؟

أجابته في ارتباك:

– أرى أن نجري عملية الإجهاض بدلا من المخاطرة .. وسيعوضنا الله بإذنه تعالى

هز الطبيب رأسه في أسى قائلا:

– للأسف يا سيدتي .. إنها فرصتكما الوحيدة لإنجاب طفل سليم

قال عمرو في ارتياع:

– ماذا تعني يا دكتور؟

– اسمعني جيدا يا أستاذ عمرو.. يكتمل تكوين الجنين في الأشهر الثلاثة الأولى .. وزوجتك تعرضت للإشعاع في أواخر الشهر الثالث مما يعني أن الجنين كان قد اكتمل تقريبا قبل أن يتعرض للإشعاع

– بالضبط

– أما الآن وبعد تعرضكما للإشعاع فالجينات لديكما لابد وقد حدث بها طفرات ولو بنسبة ضئيلة لذا فأي تكوين جنيني جديد سيكون مشوها باحتمال تصل نسبته إلى ثلاثين بالمائة بينما احتمال تشوه هذا الجنين لا تتعدى الخمسة بالمائة

قال عمرو في ارتياع:

– هل تعني انه لن يمكننا الإنجاب ثانية؟

– إنني لم أقل ذلك

– ما معنى كلامك إذن؟

– المعنى واضح يا أستاذ عمرو.. إذا حاولتما الإنجاب ثانية فستكون المخاطرة أكبر واحتمال أن يأتي الجنين مشوها أعلى .. لذا أنصحكما بالاحتفاظ بهذا الجنين

واستطرد في أسى:

– ربما تكون تلك هي فرصتكما الأخيرة في إنجاب طفل سليم .. من يدري؟ .. ربما

* * *

طرق عمرو باب معمل الفيزياء في مبنى كلية العلوم عدة طرقات خافتة وما أن سمع من يدعوه للدخول حتى دفع الباب ودلف إلى الداخل بينما يرتسم الحزن على وجهه وما أن رآه سمير حتى أشاح بوجهه بعيدا وهو يقول في ازدراء:

– أنت؟

– أما زلت غاضبا مني؟

– وهل فعلت ما يغضب؟

– أرجوك .. إنني لا أستطيع تحمل سخريتك اللاذعة تلك

– فهل تريد مني مديحا على أعمالك العظيمة؟

– لا أدري لماذا يقف الجميع ضدي؟

– ببساطة لأنك على الجانب الخطأ

– وأين الجانب الصواب في رأيك؟

– سل ضميرك

– ألا يمكننا أن نتناقش بالعقل والمنطق؟

– لن أتناقش مع خسيس مثلك

– خسيس؟ .. إنني أجري التجارب لخدمة بلادي .. لو كنت في أمريكا لأقاموا لي تمثالا

– فعلا إنهم يقيمون التماثيل لمعدومي الضمير أمثالك

– أرجوك .. فلتتوقف عن تلك اللهجة الساخرة

– وهل تنتظر مني أن أنظم شعرا في صنائع يديك؟

– لا أنتظر منك شعرا ولكنني أنتظر أن تعاملني بما يليق بي

– ومن الذي يحدد ما يليق بك؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد أنني أرى أن ما يليق بك هو حبل المشنقة

– لماذا لم تبلغ عني حتى تريح ضميرك وتريحني؟

– وهل تظنني لم أفكر في ذلك؟

– ولماذا لم تفعل؟

– لقد خشيت علي بلادي من أزمة سياسية رهيبة مع الاتحاد السوفيتي لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وكما تعلم لسنا ندا للاتحاد السوفيتي

– يا للوطنية! .. ها أنت من يستحق التمثال .. ثم من أخبرك أننا لسنا ندا للاتحاد السوفيتي؟ .. إننا بالجهاز الذي نملكه أقوى بكثير

– ألم أقل لك أنك معدوم الضمير؟ .. هل تفكر في استخدام جهازك ضد البشرية ثانية بعد ما حدث؟

– عندما يتعرض أمن مصر للخطر فكل شيء مباح

– ذاك منطق سفاح

– لو فكر نوبل بمنطقك لما اخترع الديناميت

– نوبل كان يسعى لغرض نبيل

قال مستنكرا:

– اختراع الديناميت غرض نبيل؟

– على الأقل كان مخترعه يسعى لاستخدامه في خدمة البشرية

– الديناميت في خدمة البشرية؟

– تعلم يقينا أنه لم يكن يقصد استخدامه كسلاح وإنما كان يفكر في رفاهية البشر .. كان يريد استخدامه في حفر الأنفاق وتمهيد الطرق و..

قاطعه قائلا:

– المهم هي النتيجة

– ولكن الرجل كان يقظ الضمير أراد التكفير عما تسبب به اختراعه فأوقف جل ثروته على جوائز تمنح من أجل السلام و من أجل كل ما يخدم البشرية

– ومن أدراك أنني لن أفعل مثلما فعل؟

– متى؟ .. بعد أن تدمر البشرية؟ .. ولو أعدت بناء كل شيء .. هل ستعيد أرواح الأبرياء الذين حصدهم وسيحصدهم سلاحك؟

– يبدو أنه لا جدوى من الحديث معك

– كما يبدو أنه لا جدوى من محاولة إيقاظ ضميرك .. لا جدوى مطلقا

* * *

ربت الأستاذ حامد على ظهر ابنته في حنان وهو يحاول أن يهدئ من روعها بينما ارتمت في حضنه وأطلقت لدموعها العنان

– اهدئي يا ابنتي .. ما تفعلين خطر على الجنين

– إنني خائفة يا أبي

– مم يا ابنتي؟

– من انتقام الله

قال في دهشة:

– ولماذا ينتقم الله منك يا ابنتي .. ألم يحن الوقت بعد لتصارحينني بما حدث؟

جففت دموعها وهي تقول في ارتباك:

– صدقني يا أبي .. لم يحدث شيء .. إنني أقصد الإشعاع وما فعل بنا

– فلتأملي في رحمه الله يا ابنتي ولن يردك أبدا

– ولكنني مرعوبة يا أبي

– فلتكوني متفائلة يا ابنتي

– وأنى لنا بالتفاؤل يا أبي وضميرنا مازال يعذبنا؟

قال في دهشة:

– ماذا حدث يا ابنتي؟ .. ولماذا يعذبكم ضميركم؟

قالت في ارتباك:

– لأننا .. لأننا عرضنا الجنين للأشعة والخطر

– وما ذنبكم يا ابنتي؟ .. وهل كان من أحد ليتوقع ما حدث؟

– ولكن ما ذنب ذلك الطفل المسكين حتى يعيش في عذاب؟

– لماذا تتوقعين الشر يا ابنتي .. ألم يطمئنكم الطبيب؟

– بلى يا أبي ولكنه لم يضمن لنا أن يأتي سليما مائة بالمائة

– حياتنا نفسها ليست مضمونة لساعة واحدة يا ابنتي

– ولكن تصرفاتنا أحيانا قد تدفعنا إلى منعطف فيه دمارنا
– تلميحاتك تقلقني كثيرا .. ماذا تخفين عني بالضبط يا ابنتي؟
– وماذا يمكن أن أخفي عنك يا أبي؟
– تكلمي يا ابنتي حتى يستريح قلبك وقلبي
– قلوبنا كثيرا ما تشقى بكلامنا يا أبي
– كلامك يؤكد وجود سر رهيب ولن أستريح حتى أعرفه .. تكلمي يا ابنتي فقد نجد حلا سويا
– ليس لما عندي من حل يا أبي
– حتى لو لم نجد الحل يا ابنتي فقد أستطيع التخفيف عنك
– هناك أشياء من الصعب أن تقال
– ألا تثقين في أبيك؟
– ليست مسألة ثقة يا أبي ولكن ..
– ولكن ماذا؟ .. تكلمي أرجوك
– لا أدري ماذا أقول يا أبي
– قولي الحقيقة مهما كانت صعبة يا ابنتي
– هل أقول لك أنني انخدعت في أقرب إنسان إلي؟
– من تقصدين يا ابنتي؟
– لقد انخدعت في زوجي .. لقد تزوجت من شخص معدوم الضمير
– ماذا فعل يا ابنتي؟
– سأخبرك يا أبي

وراحت تقص عليه ما حدث ..
بالتفصيل

* * *

دلف سمير إلى معمل الفيزياء الذي يعمل به في كلية العلوم وما أن أغلق بابه خلفه حتى فوجئ بعمرو فصرخ به في غضب:

– ماذا تفعل هنا بالضبط؟

انتفض جسد عمرو في قوة ولكنه استعاد رباطة جأشه سريعا وقال:

– ماذا تظنني أفعل؟ .. سآخذ جرامين من البلوتونيوم لأجري عليهما تجاربي

– ولكنك تعلم أن الخروج بتلك المادة ممنوع

قال عمرو في غضب:

– لابد وأن تتوقف عن دور الحكيم الذي تلعبه معي إنه لا يناسبك بالمرة

– وأتركك لتسرق البلوتونيوم؟

قال في غضب:

– حذار أن تردد تلك الكلمة ثانية؟ .. إنني باحث محترم و..

قاطعه صائحا في عنف:

– وهل من باحث محترم يفعل ما فعلت؟

– وهل فعلت ما يشين؟

– ألم تأخذ البلوتونيوم في غيابنا؟

– لقد طرقت الباب فلم يجبني أحد

– أهذا مبرر لتسرقه؟

– أتكررها ثانية؟

– وسأكررها للأبد مادمت تتصرف كاللصوص

– لقد أخذت الجرامين المخصصين لي .. إنني حر في نصيبي

– أي نصيب ذلك؟ .. أتظن أن الكلية سلمتنا إياها لنقتسمها فيما بيننا؟

– فلماذا إذن يا عبقري؟

– حتى نجري عليها تجاربنا

– فهل ضبطتني آكلها؟

– إلى أين ستأخذ تلك الكمية؟

– سأجري عليها بعض التجارب في المنزل ثم أعيدها

– ولكنها مادة خطرة وخروجها من المعمل ممنوع

– إنني حر

– معدومي الضمير أمثالك عندما يعرضون حياة الآخرين للخطر فهم ولاشك ليسوا أحرارا

– ألا تريد أن تغفر؟

– جريمتك أكبر من أن تغتفر

– عموما لست مضطرا أن أعطيك تبريرا لتصرفاتي

– أقسم لو تسببت في مصيبة أخرى فلن أرحمك .. لن أرحمك أبدا

* * *

دلف عمرو إلى شقته وهو يحمل صندوقا صغيرا مصنوعا من الرصاص بينما كان عقله شاردا تماما .. ذلك الغبي يقف دائما في طريقي .. لماذا

يعاندني دائما؟ .. كيف اعتبرت ذلك الحاقد يوما صديقا لي؟ .. إنه لا يستحق أن أعيره جزءا ولو ضئيلا من اهتمامي .. سأمضي في طريقي وسأصل إلى هدفي .. لابد وأن أجعل منك يا مصر أقوى دولة في العالم وإلا فإنني لا أستحق أن أدعى مصريا ولا أستحق أن تحتضنيني وترويني من نيلك

انتبه على صوت سعال والدته وهي تكاد أن تختنق .. أسرع نحوها في لهفة قائلا:

– ماذا بك يا أمي؟

– لقد عاودتني نوبة الربو يا ابني

– هيا إذن إلى الطبيب

– وماذا سيفعل الطبيب؟

– سيجد حلا لما أنت فيه

– لقد ذهبت إليه مرارا ولا فائدة

– فلنذهب إلى طبيب آخر

– لقد ذهبت إلى كل أطباء المنطقة ولا فائدة

– لابد وأن نفعل شيئا

– لا تقلق يا ابني .. ما أن أستخدم عبوة الاستنشاق حتى أصبح على ما يرام

– سأحضرها لك

وأسرع نحو الغرفة وغاب بداخلها ثوان ثم عاد بالعبوة وهو يعدو نحوها .. ناولها إياها في سرعة وما أن التقطتها منه حتى استنشقت ما بها وتنهدت في ارتياح وهي تقول:

– لقد زالت الأزمة

ثم مدت يدها إليه بالعبوة وهي تقول:

– لا تنسى أن تحضر لي عبوة جديدة يا ابني فقد فرغت

التقط العبوة الفارغة من يدها وهو يقول:

– سأحضرها على الفور

– لا داعي الآن يا ابني فلقد أصبحت على ما يرام .. فلتحضرها معك حينما تخرج

وضع العبوة الفارغة في جيب سترته وهو يقول:

– حسنا يا أمي

– هل أجهز لك الطعام؟

– ليس الآن يا أمي فأمامي بعض التجارب و..

قاطعته قائلة:

حسنا .. فلتنجز تجاربك يا ابني وعندما تنتهي منها سيكون الطعام جاهزا

– لست مطمئنا عليك يا أمي .. لقد ازدادت تلك الأزمات مؤخرا

– اطمئن يا ابني .. لقد اعتدت على تلك الأزمات حتى أصبحت جزءا من حياتي

ابتسم لها في حنان وهو يقول:

– حسنا .. أستأذنك يا أمي

– تفضل يا ابني

دلف إلى حجرته في هدوء ووضع الصندوق على المنضدة ثم فتح دولابا خشبيا أخرج منه جهازه الذي يشبه التلسكوب وأسرع يثبته في مواجهة العلبة الرصاصية وهو يغمغم:

– تلك الأشعة رائعة إنها قادرة على اختراق الرصاص لذا فلست بحاجة لفتح الصندوق و تعريض نفسي للإشعاع ولو للحظات

راح يوصل طرف جهازه بمصدر للكهرباء وهو يغمغم:

– سأبدأ بخمس ثوان ثم أتدرج في الوقت

ضبط المؤشر في جهازه على خمس ثوان و ضغط مفتاح الجهاز ثم راح يحملق في صندوقه الرصاصي في ترقب وقلق .. مرت الثوان الخمس عليه وكأنها دهر ولكنها مرت دون أن يحدث شيء فتنهد في ارتياح ثم راح يضبط مؤشر جهازه على عشرة ثوان وقد ازدادت ثقته في نفسه كثيرا .. ومرت الثوان العشرة ولم يحدث شيء

غمغم قائلا:

– ذلك الغبي لم يصدقني .. ليته موجودا ليرى بنفسه وليصدق أن حساباتي دقيقة ولا يمكن أن تخطئ أبدا .. وحتى لو ضبطت جهازي على عشرين ثانية فلن يحدث شيء .. فالانفجار يحتاج إلى كمية كبيرة من البلوتونيوم لا إلى جرامين فحسب

ضبط مؤشر جهازه على عشرين ثانية ثم ضغط مفتاحه وهو يغمم:

– وها هي التجربة العملية ستثبت صدق حساباتي

سمع والدته تسعل من جديد .. أسرع يركض نحوها وهو يقول:

– ماذا بك يا أمي؟

قالت وهي تكاد أن تختنق:

– لقد عاودتني الأزمة .. انجدني بعبوة الاستنشاق من الصيدلية يا ابني

أسرع يعدو بأقصى ما يستطيع من قوة ويقفز السلم في سرعة جنونية ولكنه ما أن غادر المبنى حتى دوى انفجار رهيب .. انفجار أطاح بالمبنى.. تماما

* * *

كان الانفجار رهيبا بحق .. انفجار أحال المبنى إلى كومة من التراب في ثوان واشتعلت النيران ووصلت ألسنة اللهب إلى عنان السماء ونتج عن الانفجار موجة من التضاغط حملت عمرو لثلاثة أمتار كاملة وألقت به في عنف على الأرض فسقط فاقدا وعيه وانفجر زجاج نوافذ المباني المجاورة في عنف ولم تمض دقائق حتى كانت أصوات صفارات سيارات الشرطة والمطافئ تدوي في كل مكان وتصم الآذان .. أسرع رجال الشرطة يفرضون كردونا من الأشرطة الصفراء حول المكان ويمنعون الجماهير من الاقتراب .. لم تمر نصف الساعة حتى اكتظ المكان بالصحفيين ومندوبي وكالات الأنباء .. وقفت إحدى مذيعات التليفزيون أمام إحدى الكاميرات وهي تقول في صوت غلب عليه الحزن والأسى:

– الجميع هنا في ذهول .. لا أحد يدري ماذا حدث؟ أو لماذا؟ لا أحد يدري ما السبب وراء تلك الكارثة المروعة؟ ولا من المتسبب بها؟ .. ليس علينا في الوقت الحالي إلا أن نقرر واقعا ملموسا أمام أعيننا .. نحن أمام انفجار مروع يطرح في الأذهان العديد من التساؤلات التي يبدو أنها ستظل بلا إجابة لأمد غير قصير .. ترى هل نحن أمام عمل إرهابي؟ .. ليس لدينا على الإطلاق ما يدعم هذا الرأي .. إننا في الدقي أحد أهدأ أحياء القاهرة الكبرى .. كما أن المكان ليس سياحيا أو ذا أهمية خاصة حتى يستهدفه الإرهابيون .. ليس لدينا الآن إلا أن نراقب ما يحدث في صمت مختلط بالذهول حتى يخرج علينا أحد المسئولين بتفسير مقنع لما يحدث .. لا يسعنا الآن إلا أن نضم قلوبنا إلى قلوب أقارب الضحايا الذين انفطرت قلوبهم وامتلأت وجوههم ذهولا واغرورقت عيونهم بالدموع في لوعة وأسى ..

التفتت فجأة نحو سيارة توقفت على التو وهي تستطرد:

– ها قد وصل ضابط برتبة كبيرة فلنسرع إليه علنا نجد لديه تفسيرا لما حدث

أسرعت نحو الضابط الذي كان يفتح باب سيارته ويخرج منها وهو ينظر إلى المشهد أمامه في ذهول .. بادرته قائلة:

– سيادة العقيد .. هل يمكن أن تفسر لنا ما يحدث؟

تزاحم الصحفيون ورجال الإعلام حوله فراح يشق طريقه بينهم في صعوبة وهو يقول:

– للأسف يا سادة .. لا تفسير لدي لما حدث

قال أحد الصحفيين:

– هل يندرج الأمر تحت بند من بنود السرية؟

– أبدا يا سادة .. سنجري تحقيقا في الأمر وسنعلن كل شيء عليكم بإذن الله

قال أحدهم:

– ولكن ما هي انطباعاتك الأولية عن الحادث؟

– لقد فوجئنا مثلكم تماما بالحادث؟

قال آخر:

– هل ترجح أن يكون عملا إرهابيا؟

هز رأسه في ضيق قائلا:

– لماذا تستبقون الأحداث دائما؟

التفت الجميع فجأة إلى مجموعة من سيارات الشرطة وبعض الدراجات النارية القادمة نحوهم وهي تطلق صفيرا يصم الآذان

صاح أحدهم قائلا:

– إنه وزير الداخلية

أسرع الجميع يتدافعون نحو السيارة التي توقفت على بعد خطوات منهم مما جعل وزير الداخلية يهبط من سيارته في صعوبة بينما يجاهد رجال الشرطة في إفساح الطريق له .. بادره أحد الصحفيين قائلا:

– سيادة الوزير .. حضورك إلى هنا بنفسك يؤكد أن هناك عملا إرهابيا

قال الوزير في هدوء:

– حضوري إلى هنا يا سادة يؤكد اهتمامي بأبناء وطني وحرصي على الاطمئنان عليهم

قال آخر:

– ولكن الأمر خطير للغاية ، أليس كذلك؟

– الأمر خطير بالفعل .. سيادة الرئيس مهتم بالأمر شخصيا ولقد كلفني بأن أتحرى الأمر بنفسي وأبلغه التطورات أولا بأول

قال ثالث:

– ولكن أهل المنطقة في رعب ويخشون من تكرار ما حدث

– إنني أطمئن الجميع وأؤكد لهم أن ما حدث لا يمكن أن يتكرر

قال رابع:

– وما مصدر هذا التأكيد يا سيادة الوزير؟

– كفى أسئلة يا سادة

وأسرع رجال الشرطة يفسحون الطريق أمامه بينما يمضي مبتعدا عن الصحفيين واستفساراتهم التي بدت وكأنها لا تنتهي ..

لا تنتهي أبدا

* * *

اقتحم أحد الضباط مكتب مدير المخابرات الأمريكية وهو يهتف قائلا:

– كارثة .. مصيبة .. جنرال

نهض مدير المخابرات الأمريكية من مقعده وهو يقول في فزع:

– ماذا حدث بالضبط؟

– لقد حللت أقمارنا الإنبعاثات الناجمة عن الانفجار فأظهرت مفاجأة مذهلة

– أي مفاجأة تلك؟

– إنه انفجار نووي محدود جنرال

فغر مدير المخابرات فاه في دهشة وحدق في وجه الضابط وهو يقول:

– هل تعي ما تقول؟

– لست أنا من يقول جنرال

– من إذن؟

ازدرد لعابه في صعوبة وهو يقول:

– إنها التقارير جنرال

ثم مد يده إليه بالتقارير وهو يستطرد قائلا:

– ها هي .. تفضل جنرال

التقط مدير المخابرات الأوراق من يده وراح يتفحصها في ذهول ثم ما لبث أن ألقى بها على سطح مكتبه في عصبية وهو يقول:

– مستحيل

– ولكن المستحيل قد حدث جنرال

– هراء .. مجرد هراء

– إنها الحقيقة جنرال

– إنني لا أصدق حرفا واحدا

– تحليل الانبعاثات تم عن طريق الكمبيوتر المتصل بأقمارنا الصناعية جنرال ولا يمكن أن يخطئ

– ولكن ذلك مستحيل .. مستحيل

– لماذا جنرال؟

– انفجار نووي محدود في مصر؟

– هذا ما تقول التقارير

– لقد بلغنا شأنا عظيما في علوم الذرة ومع ذلك فالانفجار النووي المحدود مازال حلما يراود عقول علمائنا

– يبدو أن أحدهم قد سبقنا وتوصل إليه جنرال

– تقصد المصريين؟

– ولم لا جنرال؟

– لا يمكن

– ربما توصل أحد علمائهم إلى ذلك مصادفة جنرال

– إنهم حتى لا يملكون مفاعلا نوويا

– لديهم مفاعل في أنشاص جنرال

أشاح برأسه بعيدا وهو يقول:

–إنه مفاعل صغير متهالك لا يصلح لأي شيء .. ثم إنه مغلق منذ فترة طويلة

قال في تردد:

– ربما يملكون مفاعلا سريا جنرال

– كيف بالله عليك؟ .. إننا في عصر السماوات المفتوحة وأقمارنا تحصي عليهم أنفاسهم

– ما تفسيرك إذن لما حدث جنرال؟

– التفسير الوحيد هو أن خبراءنا مخطئون

– مستحيل جنرال

– المستحيل هو ما يكتبونه في تقاريرهم

والتقط مدير المخابرات مجموعة الأوراق ومد يده بها نحوه وهو يقول في عصبية:

– تفضل

– ما هذا جنرال؟

– إنها تلك التقارير الغبية التي أحضرتها

– وماذا أفعل بها جنرال؟

– فلتعيدها إليهم ليتحروا الدقة ويعيدوا كتابتها

التقط التقارير من يده ثم قال:

– لقد أعدتها إليهم ولكنهم أكدوا على ما جاء بها جنرال

– وماذا يعني ذلك بالضبط؟

– هناك احتمال قد يفسر الأمر جنرال

– ما هو؟

– أليس من المحتمل أن تكون إسرائيل هي التي ..

فكر للحظات ثم قال في صوت خافت:

– إنه احتمال منطقي .. بل أنه الاحتمال المنطقي الوحيد

– بالطبع جنرال .. فإسرائيل لديها كل المقومات لابتكار قنبلة كتلك

– بالضبط .. ولكنها كارثة

– لماذا جنرال؟

–أليست كارثة أن يجرب الإسرائيليون قنبلتهم في مصر؟ .. إنه تصرف غير مسئول

– الإسرائيليون هكذا دائما .. لا يحسبون حسابا لأحد

– ولكن ذلك قد يشعل المنطقة برمتها

– مع وجود قنبلة كتلك لدى إسرائيل جنرال فلن تخشى العرب مجتمعين وستفعل ما يحلو لها ومن دون رادع

– إنك على حق ولكن الأمر يحتاج إلى تأكيد

– إننا في انتظار أوامرك جنرال

– ستسافر إلى الشرق الأوسط فورا

– إنني على أتم استعداد جنرال

– لابد وأن تتأكد من الأمر تماما

– سأفعل جنرال

– لو صح ما تقول فإن عصرا جديدا قد بدأ .. عصر تسوده إسرائيل .. وبلا منازع

* * *

جلست ريهام إلى مقعد مجاور لفراش زوجها في المستشفى وأمسكت بكمادة راحت تبللها بالماء المثلج وتضعها على جبينه الذي يتصبب عرقا على الرغم من برودة الجو.. كان يهذي من شدة الحمى .. إنني المجرم .. سامحيني .. لم أقصد .. أمي .. أرجوك ..

حاولت أن تخفف من حدة ارتفاع حرارته بلا جدوى .. أسرعت إلى خارج الحجرة تبحث عن الطبيب وما أن عثرت عليه حتى بادرته قائلة:

– دكتور .. انجدني أرجوك

– ماذا حدث يا سيدتي؟

– زوجي

– ماذا به؟

–إنه يهذي وحرارته مرتفعة للغاية

– اطمئني يا سيدتي سأذهب إليه على الفور

اندفع الطبيب نحو الحجرة في خطوات أقرب إلى العدو وخلفه ريهام التي تكاد أن تعدو لتلحق به وما أن ولجها ولحقت به حتى قال يطمئنها:

– لا تقلقي يا سيدتي.. إنه أمر عادي في حالته .. إنه محظوظ للغاية فهو الوحيد الذي نجا من الانفجار

– ولكن حرارته مرتفعة يا دكتور وجسده يتصبب عرقا

– سيكون بخير إن شاء الله

ثم اقترب من عمرو وحقنه بعقار خافض للحرارة وما أن انتهى من ذلك حتى غادر الحجرة بينما كان عمرو يواصل هذيانه .. أقتلوني .. أعدموني .. لا أستحق الحياة .. لم أكن أقصد .. ضميري .. مجرم

اقتربت منه ريهام وراحت تربت على صدره وهي تقول:

اهدأ يا عمرو .. اهدأ يا حبيبي

ترقرقت دموعها في عينيها وما لبثت أن أغرقت وجنتيها .. راحت تجففهما بمنديلها ولكنهما ما لبثتا أن تبللتا بدموع جديدة .. طرأ عليها هاجس مفاجئ .. ترى ماذا بك يا عمرو؟ .. لماذا يعذبك ضميرك إلى هذا الحد؟ .. ألك يد فيما حدث أم أن كلامك لا يعدو مجرد هذيان؟ .. أيمكن أن يموت ضميرك إلى هذا الحد؟ .. هذيانك يؤكد أن لك يدا فيما حدث .. هزت رأسها بشدة وكأنها تنفض عنها أفكارها ثم غمغمت في صوت خافت:

– لا .. لا يمكن .. عمرو لا يمكن أن يفعلها

ولكن هواجسها عادت إليها من جديد .. لماذا أستبعد أن يكون من فعلها؟ .. ألم يفعلها من قبل؟ .. ما معنى ما يقوله في هذيانه؟ .. هل جننت يا ريهام؟ .. أتحاسبينه على هذيانه؟ .. ما يقول لا يتعدى هذيان مريض واقع تحت تأثير الحمى التي تؤثر عليه وتشوش على أفكاره .. ولكن لماذا لا يكون هذا ما في عقله الباطن وقد أخرجته الحمى؟ .. لابد وأن له يدا فيما حدث .. عادت تهز رأسها من جديد بينما راحت دموعها تشق لها طريقا عبر وجنتيها .. أفاقت من شرودها على صوت عمرو الذي فتح عينيه في صعوبة وهو يغمغم:

– لقد أجهدتك معي كثيرا يا حبيبتي

وأحست بقلبها يرقص في سعادة ..

غامرة

* * *

اقترب أحد الضباط من الطبيب الذي خرج للتو من حجرة عمرو في المستشفى وبادره قائلا:

– كيف حال المريض الآن يا دكتور؟

– إنه بخير

– هل يمكننا استجوابه؟

– لا مانع

وأسرع يقوده إلى الحجرة وما أن اقترب الضابط من عمرو الذي كان راقدا في فراشه حتى بادره قائلا:

– هل تسمح لنا بدقائق من وقتك يا سيد عمرو؟

– تفضل يا حضرة الضابط

جلس الضابط إلى مقعد بجواره وهو يقول:

– ما هي معلوماتك عن الانفجار يا أستاذ عمرو؟

– ليست لدي أية معلومات؟

قال في غضب:

– كيف ذلك؟ .. إنك الوحيد الذي نجا من الانفجار

– لقد كنت خارجا من المبنى عندما دوى الانفجار ولم أشعر بنفسي إلا في المستشفى

– ولكن الشهود أكدوا أنك كنت تعدو خارجا من المبنى قبل الانفجار بثوان وهذا يعني أنك كنت على علم بموعد الانفجار أو على الأقل كنت تعلم أن انفجارا ما سيقع

– لقد كنت أعدو لسبب مختلف يا حضرة الضابط

– ما هو؟

ترقرقت الدموع في عينيه وهو يقول:

– لقد كانت والدتي – رحمها الله – تعاني نوبات ربو حادة ولما فاجأتها الأزمة وفرغت عبوة الاستنشاق التي تستخدمها كان علي أن أنجدها وأشتري لها أخرى وبمنتهى السرعة

– هل ترى ذلك منطقيا يا سيد عمرو؟

– لابد وأنكم قد وجدتم العبوة الفارغة بينما كنت غائبا عن الوعي

– لقد وجدناها بالفعل

– إذن فالأمر واضح تماما

– ولكن ألا ترى أن التوافق الزمني بين عدوك وحدوث الانفجار غريب نوعا ما؟

– على الإطلاق .. إنها إرادة الله التي رتبت كل شيء

– أريد سببا منطقيا يا سيد عمرو

– وهل إرادة الله سبب غير منطقي؟

– ولكن الله يسبب الأسباب

– وهذا ما حدث .. فقد أراد الله لي النجاة فجعلني أعدو لأنجد أمي

– كلامك لا يمكن تصديقه يا سيد عمرو

– تأكد يا حضرة الضابط أنني لو كنت أعلم بوجود مثل ذلك الانفجار لعدوت في الاتجاه المعاكس

– لماذا؟

ترقرقت الدموع في عينيه وتهدج صوته وهو يقول:

– لأنقذ أمي

– حتى لو خسرت حياتك؟

– حتى لو خسرت الدنيا كلها

ثم انحدرت دموعه على وجنتيه وهو يستطرد قائلا:

– تأكد أنني لو خيرت أن أفتديها بنفسي لما ترددت ولو للحظة .. ولو للحظة واحدة

* * *

وقف عمرو وهو يرتدي ملابس المستشفى في قلق بجوار حجرة الولادة في المستشفى والى جواره الأستاذ حامد الذي كان يربت على ظهره قائلا:

– اهدأ يا ابني .. ستكون بخير إن شاء الله

– صراخها يمزق نياط قلبي يا عمي

– إنها سنة الحياة يا ابني .. كل النساء تمر بتلك الآلام وما أن يأتي المولود حتى ينسين كل شيء ولا يذكرن سوى فرحتهن به

– أتمنى لو أستطيع أن أخفف عنها

– سيخفف الله عنها يا ابني

سمع كلاهما صراخ المولود فجأة

– هل سمعت يا عمي؟

احتضنه وهو يقول:

– فليتربى في عزك يا ابني

– أشكرك يا عمي .. أود أن أصرخ بأعلى صوتي وأخبر العالم كله أنني سعيد بل في قمة السعادة

– أتم الله سعادتك يا ابني

خرج الطبيب من حجرة الولادة فأسرع عمرو نحوه وهو يقول:

– خيرا يا دكتور

– لقد رزقك الله بنتا كالبدر

– والأم يا دكتور؟

– إنها بخير

– هل يمكنني أن أطمئن عليهما؟

أشار الطبيب إلى حجرة أمامه وهو يقول:

– سينقلونهما فورا إلى تلك الحجرة وحينئذ يمكنك رؤيتهما والاطمئنان عليهما

– أشكرك يا دكتور

– لا شكر على واجب يا ابني

نظر الطبيب إلى ملابس المستشفى التي يرتديها عمرو وهو يستطرد:

ولكنك أيضا مريض ولابد أن تستريح

– لقد زال عني المرض تماما يا دكتور

انصرف الطبيب بينما بقي عمرو مع الأستاذ حامد أمام حجرة الولادة حتى انفتح بابها وظهر خلفه مجموعة من الممرضات يدفعن أمامهن فراش متنقل

استلقت عليه ريهام فأسرع نحوها وأمسك بإحدى يديها بين راحتيه وضغطها في حنان قائلا:

– مبروك يا حبيبتي

ظهرت سعادة الدنيا في عينيها وهي تقول:

– مبروك يا حبيبي

– لكم أحبك

– ماذا ستسميها؟

– منار

– إنه اسم جميل

– أين هي؟

أشارت نحو إحدى الممرضات وهي تقول في وهن:

– معها

أسرع نحو الممرضة التي تحمل الطفلة وهو يقول:

– هل يمكنني حملها؟

وضع في يدها ورقة نقدية كبيرة ثم أخذ الطفلة منها وراح يحتضنها ويضمها إلى صدره في حنان بالغ بينما كان قلبه يرقص في سعادة .. غامرة

* * *

– انتقام الله حل بنا يا عمرو

– ماذا تقولين؟

– سنعيش في عذاب طوال حياتنا

– لا أفهم شيئا

– ابنتنا يا عمرو

– ماذا بها؟

– انهمرت دموعها وهي تقول:

– إنها لا ترى

– ماذا تقولين؟

– لقد ولدت كفيفة البصر

قال في هلع:

– كفيفة البصر؟ .. لا أصدق أذني

قالت في حزن:

– كان لابد لما فعلت من عقاب .. وها هو انتقام الله قد جاء رهيبا

راحت تبكي وتنشج وهي تستطرد:

– ما ذنبي يا الهي حتى أعيش في عذاب طوال حياتي؟ .. إنني لم أفعل ما يغضبك .. ولكن يبدو أن أكبر ذنب اقترفت في حياتي هو أنني تزوجتك

أسرع عمرو ينزع عنه الغطاء ويندفع نحو الحضّانة .. لحقت به ريهام في سرعة .. أمسك بابنته وأخذ يحرك إحدى يديه أمام عينيها وهو يقول:

– لقد أكد الطبيب لي أنها سليمة تماما

– لقد كانت عينيها مغمضتين في البداية كأي مولود فلم ينتبه إليهما أحد ولكن ما أن بدأت في إرضاعها حتى لاحظت ما بها وأسرعت إلى الطبيب الذي فحصها وقرر أنها لا ترى

وضع الصغيرة في سريرها ومضى نحو حجرته في خطوات بطيئة والحزن يرتسم على وجهه بكل صوره .. كان يشعر بكآبة ما بعدها كآبة .. رحماك يا رباه .. لماذا تعاقب ابنتي؟ .. إنني المجرم .. لماذا لم تحكم علي بالموت مع من ماتوا؟ .. لماذا تركتني لأتعذب؟ .. لماذا تركتني لضميري الذي لا يرحم؟ .. لماذا تركتني لأرى نتيجة أفعالي في معاناة ابنتي؟ .. ما ذنبها يا الهي؟ .. خيل إليه أنه يسمع صوت ضميره .. وما ذنب ضحاياك؟ وما ذنب أقاربهم فيما يعانون؟ .. راح يسد أذنيه بكلتا راحتيه ولكن ذلك لم يكتم الصوت .. سالت دموعه كالمطر وراحت تحفر لها مجرى على كلتا وجنتيه .. راح يبكي وينشج كطفل صغير .. إنني لا أستحق الحياة .. إنني عار على البشرية .. لقد أردت أن تفخر ابنتي يوما بأبيها .. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ .. لقد تركت لها بؤسا وشقاءا .. إنها قد تتبرأ مني يوما ولن ألومها .. إنني مجرم سفاح .. كيف يمكنني أن أعيش بين كل هذا القدر من عذاب الضمير؟ .. إنني لا أستحق الحياة

خطا نحو حجرته وهو لا يكاد يشعر بنفسه ثم أمسك بمشرط صغير وراح يقطع شرايين يديه بلا تردد ..

مطلقا

* * *

ألقى الرئيس الأمريكي بمجموعة من التقارير على سطح مكتبه وصرخ في وجه مدير المخابرات الذي يجلس أمامه في عصبية قائلا:

– هراء .. لا يمكن أن يكون هذا إلا هراءا

– إنها الحقيقة للأسف سيادة الرئيس

– إنها مؤامرة لإضاعة وقتي فيما لا يفيد

– إنها تقارير مؤكدة سيادة الرئيس

– بما تحاول إقناعي؟ .. إنه المستحيل بعينه

– ولكنه حدث سيادة الرئيس ولدينا صورا تم التقاطها بالأقمار الصناعية

– لابد وأنها خدعة

– لقد تأكدنا من الأمر تماما سيادة الرئيس

– المصريون؟

– لقد ظننا في البداية أن الإسرائيليون هم ..

– هذا أقرب إلى الواقع

– ولكنه الأبعد عن الحقيقة سيادة الرئيس

– هل تأكدتم من الأمر؟

– لقد أرسلنا أحد أفضل رجالنا إلى المنطقة سيادة الرئيس وتأكدنا من الأمر تماما

– لم يعد ينقصنا سوى هؤلاء

– شئنا أم أبينا سيادة الرئيس فقد دخلوا النادي النووي ومن أوسع أبوابه

قال الرئيس في عصبية:

– ولكن كيف؟ .. كيف حدث ذلك دون أن نعلم؟

– يبدو أنهم كانوا يخدعون الجميع سيادة الرئيس

– كيف؟

– لقد كانوا يجرون تجاربهم في سرية تامة ولكن الانفجار فضحهم على ما يبدو

– ولكن هذا مستحيل .. مستحيل تماما

– لماذا سيادة الرئيس؟

– لابد وأن يكون لديهم مفاعل على الأقل

قال في تردد:

– ربما يملكون مفاعلا سيادة الرئيس

– كيف؟

– ربما ساعدهم الروس أو الفرنسيون في بناء مفاعل سري

– وأين كانت أقمارنا الصناعية؟

– إنها ترصدهم وتحصي عليهم أنفاسهم سيادة الرئيس ولكنهم قوم مخادعون

– ليس إلى تلك الدرجة

– بل وأكثر سيادة الرئيس ألا تذكر ما فعلوا في أكتوبر ثلاثة وسبعين؟ .. لقد خدعوا الجميع وعبروا قناة السويس على الرغم من إجماع خبراء العالم باستحالة حدوث ذلك

– بلى .. ولقد فعلوا ذلك على الرغم من أقمارنا التي تراقبهم ليل نهار

– إنهم قوم في غاية الذكاء سيادة الرئيس .. ما فعلوه في أكتوبر مازال يدرس في جميع الأكاديميات العسكرية ولولا تدخلنا بالجسر الجوي آنذاك لدمروا إسرائيل تماما

– نعم .. نعم

– لذا فلست أستبعد سيادة الرئيس أن يكونوا قد خدعونا وبنوا مفاعلا تحت الأرض

ضرب الرئيس سطح مكتبه بإحدى قبضتيه وهو يقول في غضب:

– الأوغاد .. لابد وأن يدفعوا الثمن

– وماذا بأيدينا؟ .. لقد انتهى الأمر سيادة الرئيس

قال في صرامة:

– بل بأيدينا .. لن نقف مكتوفي الأيدي ونتركهم ليسحبوا البساط من تحت أقدامنا

– ولكن وجود ذلك السلاح في أيديهم سيادة الرئيس لا يجعل منهم خصما سهلا

– هل تظننا سنخشاهم؟

– لم أقصد ذلك سيادة الرئيس

– إننا قادرون على تدميرهم تماما

– أعلم سيادة الرئيس .. ولكنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي على أي حال

– ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟

– الكثير سيادة الرئيس وخاصة مع وجود سلاح كهذا بين أيديهم

– إنهم لا يمتلكون صواريخا طويلة المدى يمكن أن تطالنا على الأقل

– لاشيء مؤكد سيادة الرئيس

– ماذا تعني؟

– أعني أنهم استطاعوا خداع العالم واحتفظوا بأسرارهم النووية فما المانع أن تكون لديهم أسرار أخرى

– ولكن هذا يعني أن هناك خطر قادم ..

خطر من الشرق

* * *

يا لي من حمقاء .. ماذا فعلت بالضبط؟ .. لم أرى عمرو متأثرا يوما إلى تلك الدرجة .. ويلي ماذا فعلت؟ .. حالته النفسية لا تسمح بما قلت .. ولكنه يستحق ما هو أكثر .. نعم .. فما فعل ليس بالقليل .. فليعذبه ضميره حتى يغسل آثامه .. ولكن ماذا لو فعل بنفسه شيئا؟ .. لو حدث ذلك فلن أسامح نفسي أبدا .. حالته ليست مطمئنة

خطت نحو غرفته في خطوات أقرب إلى العدو و ما أن فتحت بابها حتى فوجئت به مستلقيا على فراشه وقد غرق في بركة من الدماء .. صرخت كما لم تصرخ من قبل .. هزت صرختها جنبات المستشفى فأسرع الكثيرون نحو الحجرة يستقصون السبب وراء تلك الصرخة المدوية وراحوا يحملقون بعمرو في ذهول .. شق الطبيب طريقه بينهم في صعوبة بالغة ثم صاح بهم:

– ماذا دهاكم؟ .. لماذا تقفون هكذا؟

انتزعتهم صيحته من ذهولهم فأسرعت إحدى الممرضات نحو عمرو تحاول إيقاف الدماء المتدفقة من يده .. أسرع الطبيب نحوها وهو يقول:

– دعيه لي ولتحضري كيسين من الدم بسرعة

أسرعت الممرضة تنفذ أمر الطبيب بينما انهمكت أخرى في إخراج من بالحجرة .. أشار الطبيب إلى اثنين من الممرضين الشبان قائلا:

– فلتنقلاه إلى حجرة العناية المركزة بأقصى سرعة

أسرع الممرضان ينفذان أوامر الطبيب بينما وقفت ريهام تبكي وتنشج في مرارة .. سالت دموعها غزيرة وهي تتمتم:

– إنني السبب .. لم أرحمه .. كنت قاسية معه .. أنقذه يا الهي

أسرعت خلف الممرضين وهما يدفعان زوجها على فراش متنقل نحو العناية المركزة .. كان خوفها على زوجها ولهفتها يملآن كيانها .. راحت تدعو الله من كل قلبها أن ينقذه .. أرجوك يا الهي ليس لنا سواه في تلك الدنيا .. أنقذه يا الهي ليس من أجلي بل من أجل ابنته المسكينة .. أما كفاها يا الهي أن تعيش كفيفة طوال عمرها؟ .. أما كفاها أن تحرم النور وتعيش في ظلام دامس حتى تحرم الأب أيضا؟ .. ارحمني وارحمها يا الهي .. أرجوك أنقذه يا الهي .. أرجوك يا الهي لن أستطيع أن أعيش وحدي لأقاسى مع تلك الصغيرة التعيسة .. بكت كما لم تبك من قبل وسالت دموعها غزيرة .. كالمطر

* * *

ارتفع رنين الهاتف في مكتب الرئيس المصري الذي رفع عينيه عن مجموعة من التقارير الهامة التي يطالعها وأمسك بسماعة الهاتف وقربها من أحد أذنيه وهو يقول:

– ألو

– أنا الرئيس الأمريكي

اعتدل الرئيس في مقعده وهو يقول مبتسما:

– مرحبا يا سيادة الرئيس

– ماذا يحدث لديكم سيادة الرئيس؟

قال في قلق:

– ماذا يحدث؟

– لقد رصدنا تجربة نووية لديكم

علت الدهشة ملامح الرئيس المصري وهو يهتف قائلا:

– ماذا؟ .. ماذا تقول يا سيادة الرئيس؟

– أقول تجربة نووية

– مستحيل

– ألا تعلم سيادة الرئيس؟

– لابد وأنها مزحة

– لا مزاح في السياسة سيادة الرئيس

– هل تعني أن هناك تجربة نووية بالفعل في مصر؟

– إننا متأكدون سيادة الرئيس

– إنني مندهش للغاية

– هل تعني أن رجالك يجرون تجربة نووية دون اطلاعك على الأمر؟

– مستحيل

– إذن فأنت على علم بالأمر

– سيادة الرئيس .. هل تريدون افتعال أزمة بين البلدين ولا تجدون سببا منطقيا لذلك؟

– فلنتحدث بصراحة سيادة الرئيس

– إنني أتحدث بمنتهى الصراحة

– من ساعدكم في بناء المفاعل السري؟

– مفاعل سري؟

– أهم السوفييت أم الفرنسيون؟

– إننا لا نملك سوى مفاعل أنشاص سيادة الرئيس وهو مغلق كما تعلمون

– كيف حصلتم على ذلك السلاح الرهيب إذن؟

– إنني لا أدري عما تتحدث يا سيادة الرئيس

– أتحدث عن قنبلة نووية محدودة انفجرت في مبنى بالدقي لديكم سيادة الرئيس

– هل تقصد كارثة الدقي؟

– بالطبع هذا ما أقصد بالضبط

– إنه انفجار عادي و..

قاطعه قائلا:

– هذا ما تحاولون إيهام العالم به ليتعاطف معكم

– سيادة الرئيس هل جاء دورنا لتستهدفوننا؟

– إننا لا نستهدف الدول هباءا سيادة الرئيس ولكن إذا تأكدنا من وجود تلك الأسلحة لديكم فتأكد أن الأمر لن يمر بالسهولة التي تتصورونها

– إننا لا نخاف تهديدا سيادة الرئيس

– يبدو أن تلك القنبلة قد زادت من ثقتكم في أنفسكم

– إننا نثق في قدرة الخالق يا سيادة الرئيس

– تأكد أن قنابلكم النووية المحدودة لن تحميكم منا

– سيحمينا الله بقدرته يا سيادة الرئيس

– لو ثبت أنكم مخادعون فلن نتردد في إلقاء قنابلنا النووية كلها علي رؤوسكم .. سننسف القاهرة بأكملها .. سنمحوها من الوجود .. لابد وأن يفهم الجميع أن أمن أمريكا فوق كل اعتبار

– سيادة الرئيس .. إننا لا نمتلك سلاحا نوويا ولا ننوي امتلاكه أما عن القاهرة فلها رب يحميها

– وما تفسيرك لما يحدث في الدقي إذن؟

– إنه انفجار عادي كم سبق وأخبرتكم

– وماذا عن الإشعاع الناجم عنه؟

ردد في دهشة بالغة:

– إشعاع؟

– نعم .. هناك إشعاع نجم عن الانفجار وإن كان ضئيلا إلا أن أجهزتنا تمكنت من رصده وقياسه

– إنني مندهش للغاية .. ولكن هل من المنطقي أن نفجر قنبلتنا في أنفسنا

– هذا ما يحيرني بالفعل

– هذا ما يؤكد كلامي يا سيادة الرئيس ومع ذلك فإنني أعدك أن نتحرى الأمر ونبلغكم بكل التفاصيل

– هذا ليس كافيا

– وماذا سيكون كافيا يا سيادة الرئيس؟

– سنرسل إليكم خبراؤنا ليتحروا الأمر بأنفسهم

– ولكن ..

– هذا أفضل من أن نرسل إليكم مخابراتنا بالطبع

– حسنا .. إننا في انتظارهم يا سيادة الرئيس فليس لدينا ما نخفيه .. ليس لدينا ما نخفيه مطلقا

* * *

– هل طلبتني يا سيادة الرئيس؟

أشار الرئيس إلى أحد المقاعد أمام مكتبه وهو يقول:

– تفضل بالجلوس يا سيادة اللواء

جلس مدير المخابرات وهو يقول بصوت يشوبه القلق:

– خيرا يا سيادة الرئيس

قال الرئيس في وجوم:

– ليس خيرا يا سيادة اللواء .. ليس خيرا بالمرة

تصاعد القلق بداخله فظهر جليا على صوته وهو يقول:

– ماذا حدث بالضبط يا سيادة الرئيس؟

– مصيبة .. كارثة

– لا سمح الله

– إننا على أعتاب أزمة طاحنة

– أزمة؟

قال الرئيس في حدة مفاجئة:

– إنهم يهددونني بنسف القاهرة

– نسف القاهرة؟

– بل ومحوها من الوجود

– اهدأ يا سيادة الرئيس .. اهدأ أرجوك .. صحتك تهمنا في المقام الأول

صاح به في غضب:

– أقول لك نسف القاهرة وتقول صحتي؟

– لابد وأن تهدأ يا سيادة الرئيس حتى يمكننا أن نناقش الأمر ونصل إلى حل

– كيف أهدأ والسفينة التي أقودها وقد أقسمت أن أصل بها إلى بر الأمان توشك على الغرق؟

– من يهددنا بالضبط يا سيادة الرئيس؟

تناول الرئيس كوبا من الماء أمامه وارتشف منه جرعة ثم أعاده إلى موضعه وهو يقول:

– الأمريكان

– الأمريكان؟ .. على حد علمي علاقتنا بهم جيدة

– كانت يا سيادة اللواء .. كانت

– ماذا تعني يا سيادة الرئيس؟

– السياسة متقلبة كما تعلم .. لقد ساءت العلاقات للغاية

– بين ليلة وضحاها؟

– الرئيس الأمريكي اتصل شخصيا وألقى إلي بتهديداته

– ولكن لماذا؟

– إنهم يتصورون أن لدينا مفاعلا نوويا سريا

فغر فاه في دهشة وهو يقول:

– وهل هناك سرية في عصر السماوات المفتوحة؟

– ليت الأمر وقف عند هذا الحد

– ماذا أيضا يا سيادة الرئيس؟

– إنهم يتهموننا بحيازة أسلحة نووية

قال في دهشة بالغة:

– أسلحة نووية؟

– متطورة

وصمت برهة ثم استطرد قائلا في حنق:

– بل ويتهموننا بأننا من طورها .. هل تدرك السر في عدم إمكانية استخدام الأسلحة النووية يا سيادة اللواء؟

– السر يكمن في أنها غير محدودة إذ أنها متسلسلة مما يجعلها تنتشر على مساحات شاسعة قد تمتد إلى دول بأكملها بالإضافة إلى عدم التحكم في

إشعاعاتها التي تنتشر في كل مكان وقد تصل بآثارها إلى الدولة التي ألقت القنبلة وتحدث بها أضرارا وتشوهات للأجنة

– بالضبط يا سيادة اللواء .. لذا فقد كان حلم الأمريكان أن يصنعوا قنبلة نووية محدودة يمكنها أن تصيب منطقة محدودة كما أن الإشعاعات الناجمة عنها تكون محدودة للغاية

– أعلم ذلك يا سيادة الرئيس

– ولكن ما لا تعلمه أن هذا ما تتهمنا أمريكا بحيازته

– ولكن معلوماتنا تؤكد أن الأمريكان أنفسهم لم يتوصلوا إلى هذا بعد

– ولكن الرئيس الأمريكي يؤكد أن ما حدث في الدقي ليس إلا تجربة لإحدى تلك القنابل النووية المحدودة

فغر فاه في دهشة ثم قال:

– هل تقصد كارثة الدقي الشهيرة؟

– بالضبط .. لقد حللوا الإنبعاثات الناجمة عن الانفجار عبر أقمارهم الصناعية واكتشفوا بها بعض الإشعاعات النووية

– ولكن هذا مستحيل .. مستحيل

– اسمعني جيدا يا سيادة اللواء .. لا وقت لدينا لنضيعه .. الأمريكان سيرسلون إلينا خبراءهم خلال أيام .. أريدكم أن تتحركوا على كافة الأصعدة .. ولترسلوا خبراءنا لقياس الإنبعاثات النووية في منطقة الدقي .. أريد تقريرا يحوي الحقيقة كاملة خلال يومين .. يومين على الأكثر

– ولكن الوقت ..

– الوقت ليس في صالحنا يا سيادة اللواء .. ليس في صالحنا أبدا

* * *

ما أن خرج الطبيب من حجرة العناية المركزة حتى أسرعت ريهام تحث الخطى نحوه وهي تقول في لهفة من بين دموعها التي تغرق عينيها:

– خيرا يا دكتور؟

– اطمئني يا سيدتي .. سيكون بخير بإذن الله

– هل حالته مطمئنة؟

– لقد تعدى مرحلة الخطر

– ألا يمكنني الاطمئنان عليه؟

– ما زال غائبا عن الوعي .. سيفيق خلال ساعة بإذن الله وحينئذ يمكنك رؤيته والحديث معه أيضا

– أشكرك يا دكتور

– لا شكر على واجب يا سيدتي .. ولكن ما الذي دفعه للانتحار؟ .. ألم أحذركم من تعريضه لما قد يثير أعصابه؟

– ما حدث كان رغما عن الجميع يا دكتور

– لقد أنقذناه بأعجوبة ولكن في المرة القادمة لا ندري ماذا يمكن أن يحدث؟

– اطمئن يا دكتور فما حدث لن يتكرر

– أتمنى ذلك

وانطلق الطبيب مبتعدا تاركا إياها لأفكارها ودموعها .. أشكرك يا الهي .. لكم أنا ممتنة لك .. عظيم أنت يا الهي .. ما أن ندعوك حتى تلبي ندائنا

مرت الدقائق في بطئ شديد .. مرت ساعة كاملة قبل أن تخرج إحدى الممرضات من حجرة العناية المركزة وتبشرها بأن زوجها بخير وأنه قد أفاق ويمكنها رؤيته والاطمئنان عليه .. أسرعت تعدو نحو الحجرة تختلط الفرحة بدموعها .. كم كانت سعادتها حين رأته وقد فتح عينيه في صعوبة .. اتجهت نحوه مباشرة وهي تهمس:

– عمرو

نظر نحوها بينما يرتسم الحزن على وجهه وقال:

– لماذا لم تتركوني لأموت؟ .. لماذا تريدون لي العذاب؟

– إننا نحتاج إليك يا عمرو

– وأنا أحتاج إلى الموت الذي سيريحني من عذابي

– ومن سيربي منار؟

– لن تتشرف منار بأب مثلي

– بل ستتشرف بك .. إنك عالم عظيم

– عالم عظيم؟

– نعم .. ويمكنك إصلاح ما فسد

– ما فسد لا يمكن إصلاحه

– كل شيء ممكن

– كيف؟ .. كيف؟

– يمكنك أن تفكر فيما يفيد البشرية ويكفر عن ذنبك تجاهها

– وهل سيعيد ذلك الضحايا إلى الحياة؟ .. هل سيعيد النور إلى عيني ابنتي؟ .. هل سيكفر عن جريمتي تجاهها؟

– قد لا يمكنك تعويض الضحايا ولكنك تستطيع أن تقدم الكثير لأبنائهم وأحفادهم

– وماذا عن جريمتي في حق ابنتي التي سأراها أمامي في كل حين وستظل تعذبني وتؤرقني طوال حياتي؟

– إنه قدرها ولابد أن تحتمل

– إنه عقاب الله وقد شاء القدير أن تحمله عني لأراها وأتعذب طوال حياتي .. ليتني أستطيع أن أهبها عيني

– إنها إرادة الله وليس لنا أن نعترض

– ماذا قال الطبيب عن حالتها؟

– قال أنه ضمور في أعصاب شبكية العين نتيجة .. نتيجة ..

– أكملي .. لا تحاولي التخفيف عني

– إنها إرادة الله

انحدرت دموعه في غزارة وهو يقول:

– لن أسامح نفسي أبدا .. لن أسامح نفسي على ما ارتكبت في حق تلك المسكينة

وصمت لبرهة من الوقت ثم استطرد قائلا:

– أرجوك يا ريهام .. عندما تكبر وتفهم قولي لها أنني أحببتها كثيرا .. أحببتها كما لم أحب أحدا من قبل .. قولي لها أن ما حدث كان على الرغم

منـي .. قـولي لهـا أننـي كنـت أود لـو أفتـديها بحيـاتي .. اطلبـي منهـا أن تسامحني وتصفح عني

انحدرت الدموع من عينيها وهي تقول:

– إنـك سـتعيش يـا حبيبـي وستضـمها إلـى صـدرك وتخبرها بمـا تريـد .. لقد تعديت مرحلة الخطر

جفف عمرو بعضا من دموعه بإحدى راحتيه وهو يقول:

– احضريها أرجوك يا ريهام .. أريد أن أراها

أسرعت ريهام لتحضر الصغيرة ولم تمض دقائق حتى عادت بها بين ذراعيها وهي تقول:

– تصور لقد وجدتها تـ ..

قطعت كلامها فجأة وهي تحملق ذاهلة في الفراش الذي كان خاليا .. نظرت حولها تبحث عن عمرو في الحجرة ولكنها لم تجد له أثرا .. لفت انتباهها قطعة من الورق على الفراش .. وضعت الطفلة على الفراش ثم أمسكت بالورقة وراحت تقرأها بعينيها في لهفة

"حبيبتي ريهام .. سامحيني

لم أستطع النظر في عيني منار.. لم أستطع النظر إلى جريمتي .. لن أستطيع أن أنظر في عينيك ثانية بعد ما حدث .. أنا السبب في كل ما حدث ولن أعود إلا بعد أن أكفر عن ذنبي تجاه الصغيرة على الأقل وإلا فلن أعود مطلقا .. قولي لها أن أباها أحبها حبا جما .. قولي لها أن تصفح عني

إن استطاعت وإن لم تستطع فلتحاول ألا تكرهني أنا المجرم .. أنا الذي حكمت عليها أن تعيش في ظلام دامس "

* * *

ضرب رئيس الجمهورية سطح مكتبه بإحدى قبضتيه وهو يهتف في غضب قائلا:

– ماذا تقول؟

أطرق مدير المخابرات برأسه نحو الأرض وهو يقول:

– للأسف يا سيادة الرئيس هذا ما حدث

تصاعد غضبه وهو يقول:

– إنكم لا تقدرون المسئولية .. إنه إهمال جسيم .. يبدو أنني أتعامل مع مجموعة من الهواة

– لقد اختفى قبل أن نتسلم القضية يا سيادة الرئيس

– قبل أو بعد لا يهمني .. فلتبحثوا عنه في كل مكان .. فلتنبشوا الأرض .. فلتفتشوا عنه في كل مكان .. لابد وأن تعثروا عليه

– سنعثر عليه يا سيادة الرئيس .. سنعثر عليه بإذن الله

– وهل سأنتظركم قرنا لتفعلوا؟

– إننا نحتاج إلى بعض الوقت يا سيادة الرئيس

– هذا هو الشيء الوحيد الذي لا نملكه

– ولكننا لا نمتلك عصا سحرية يا سيادة الرئيس

– ومن طالبكم بامتلاك تلك العصا؟

– ولكنك ترفض إمهالنا بعض الوقت يا سيادة الرئيس

– ومن سيمهلنا ذلك الوقت؟

– إننا نبذل قصارى جهدنا بالفعل يا سيادة الرئيس

– أهذا ما تسميه قصارى جهدكم؟ .. إذن فقل على البلد السلام

– أرجوك يا سيادة الرئيس فلنتناقش في هدوء

– وأنى لي بمثل هذا الهدوء؟

– سنجد مخرجا بإذن الله

– إنكم لم تتركوا لي مخرجا واحدا

– إنني لم أرى سيادتكم بمثل تلك العصبية من قبل

– ألا ترى ما يحدث؟

– ما ضاقت إلا وفرجت يا سيادة الرئيس

– الأمريكيون يمارسون علينا ضغوطا من ناحية والأمور تتعقد من ناحية

– متى سيصل خبراؤهم بالضبط يا سيادة الرئيس؟

– في الغد على الأكثر .. ولو توصلوا لما توصلنا إليه فلن يتركوننا وشأننا

– لن يتوصلوا إلى شيء بإذن الله يا سيادة الرئيس

– وكيف توصلتم أنتم إذن؟

– لقد قطعنا كل الخيوط التي تؤدي إلى الحقيقة يا سيادة الرئيس

– كيف؟

– عمرو الشناوي اختفى كما تعلم

– ألا يحتمل أن يظهر أمامهم فجأة؟

– اطمئن يا سيادة الرئيس .. لقد اتخذنا كل احتياطاتنا لمنع حدوث ذلك

– وماذا عن زميله الذي أبلغ عنه؟

– لقد نقلناه مؤقتا إلى جامعة أسيوط

– وماذا عن محاضر الشرطة؟

– لقد محونا أثرها تماما

– وماذا عن زوجته؟

– إنها تنكر معرفتها بالأمر تماما وستواصل إنكارها

– وماذا عن الإشاعات التي تتردد في كل مكان؟

– باحث مجنون كان يجري تجاربه على البلوتونيوم في منزله وفيما يبدو أن اسطوانة للغاز قد انفجرت مما أدى إلى احتراق البلوتونيوم وانطلاق بعض الإشعاعات منها

– ولكننا بذلك نقربهم كثيرا من الحقيقة

– السم لابد وأن يمزج بالعسل يا سيادة الرئيس ثم لاحظ أن تلك القصة تبرر وجود الإشعاعات أيضا

– وماذا لو وصلوا إلى الحقيقة؟

– لن يصلوا يا سيادة الرئيس

زفر في ضيق وهو يقول:

– وماذا عنا؟

– ماذا عنا يا سيادة الرئيس؟

– لماذا تعاندنا الأقدار؟ .. لماذا يلوح لنا الأمل ثم ما نلبث أن نكتشف أنه سراب؟ .. لماذا؟

* * *

حملقت ريهام في ساعة الحائط أمامها وكأنها تراها وتسمعها للمرة الأولى .. كانت تتكر عليها رنينها في ذلك الوقت المتأخر من الليل .. كانت تخشى أن توقظ صغيرتها من نومها إلا أن الساعة واصلت رنينها وكأنها تعلن تحديها وتأبى إلا أن تقوم بواجبها كاملا ولم تهدأ رناتها حتى أكملت اثنتي عشر رنة كاملة مشيرة إلى منتصف الليل تماما .. نهضت ريهام من مجلسها وخطت نحو حجرة ابنتها منار وما أن دلفت إلى داخلها حتى بدأت تسير في هدوء شديد .. اقتربت من الطفلة وراحت تتأملها .. كانت طفلتها قد بلغت الخامسة من عمرها وقد بدت في براءتها وجمالها كملاك صغير وهي تستلقي على فراشها وتغط في نوم عميق .. شدت ريهام الغطاء وأحكمته حول جسد الصغيرة ثم اقتربت منها وقبلت جبينها في هدوء وهمت أن تعود أدراجها خارجة من الحجرة حين سمعت الطفلة تهمهم وتهذي بكلمات لا تستطيع تمييزها .. اقتربت منها تتسمع كلماتها كانت تقول في صوت خافت حزين:

– أبي .. أرجوك عد إلينا يا أبي .. إننا نحتاج إليك كثيرا .. أرجوك يا أبي

ترقرقت الدموع في عيني ريهام واقتربت من الصغيرة تقبل إحدى وجنتيها ثم تسللت خارجة من الحجرة في هدوء شديد وأغلقت بابها خلفها ثم خطت عائدة نحو مقعدها المفضل في الردهة وجلست إليه ثم أمسكت بصندوق صغير

كانت قد وضعته على المقعد المجاور وفتحته ثم أخرجت منه مجموعة من الأوراق أخرجت منها خطاب عمرو وفتحته ثم بدأت تقرأه بعينيها اللتين غرقتا في دموعهما وما أن انتهت منه حتى شردت في أفكارها .. لماذا يا عمرو؟ .. لماذا تخليت عنا؟ .. لماذا تركتنا للحزن والألم؟ .. لماذا يا عمرو؟ .. ماذا فعلنا حتى نستحق منك كل ذلك العذاب والألم؟ .. خمس سنوات يا عمرو؟ .. مرت خمس سنوات منذ غبت عنا .. مرت علينا وكأنها خمسون عاما .. خمسون عاما من العذاب المتواصل .. أرجوك يا عمرو .. أرجوك كفانا عذابا .. عد إلينا أرجوك .. إننا نسامحك على كل ما فعلت ولكن لابد وأن تعود .. عد أرجوك

انتبهت على صوت باب الشقة ينفتح ودخل والدها عبره .. ألقت بالخطاب على المقعد المجاور وجففت دموعها بإحدى راحتيها ثم نهضت واندفعت نحوه وبادرته في لهفة قائلة:

– لماذا تأخرت يا أبي؟ .. لقد قلقت عليك كثيرا

تجاهل سؤالها وهو ينظر إلى عينيها الدامعتين ويقول:

– أما زلت تبكين يا ابنتي؟

قالت في أسى:

– وماذا بقي لمثلي غير البكاء يا أبي؟

– فلتنسه يا ابنتي ولتعيشي حياتك

انهمرت دموعها من جديد وهي تقول:

– ليت الأمر بيدي يا أبي .. ليته بيدي

ضمها إلى صدره وهو يقول:

– بيد من إذن يا ابنتي؟ .. لقد بحثنا عنه في كل مكان طيلة خمس سنوات كاملة لم نذق خلالها طعم الراحة حتى تسلل اليأس إلى قلوبنا

– إنني لم أيأس بعد يا أبي .. إنني واثقة من أنه سيعود .. لو لم يكن من أجلي فمن أجل منار .. سيعود يا أبي .. إنني واثقة من أنه سيعود

– سيعود يا ابنتي .. سيعود بإذن الله

* * *

جلس عمرو في غرفة على سطح منزل صغير بالإسكندرية وأمامه منضدة مكتظة بالكتب كان يطالع أحد تلك الكتب باهتمام شديد ويدون بعض ملاحظاته في ورقة صغيرة عندما سمع صوت طرقات خفيفة على الباب فتململ في ضجر ثم قال:

– من الطارق؟

– إنني عمك شعبان يا ابني

نهض عن مقعده وهو ينفث الهواء من فمه في ضيق ثم فتح الباب وهو يقول:

– تفضل يا عم شعبان

دلف عم شعبان صاحب المنزل إلى الداخل وهو يقول:

– أما زلت منهمكا في كتبك يا ابني؟

– وماذا لي سواها يا عم شعبان؟

– فلترحم نفسك يا ابني .. إنني لم أرك مرة واحدة تفعل كما يفعل أقرانك

– وماذا يفعل أقراني يا عم شعبان؟

– يتنزهون ويمرحون .. لماذا لا تذهب للتجول في المدينة؟ .. إنها في غاية الروعة وخاصة في المساء

ظهر الحزن في عينيه واضحا وهو يقول:

– لم يعد هناك وقت للتنزه يا عم شعبان .. فلدي الكثير والكثير لأنجزه

– وماذا تفعل بكل تلك الكتب يا ابني؟ .. هل تحضر للماجستير أم الدكتوراه؟

– بل أحضر لأهم من ذلك بكثير

– وماذا يمكن أن يكون أهم من الماجستير والدكتوراه؟

– الكثير يا عم شعبان

– مثل ماذا يا ابني؟

– مثل التكفير عن ذنب ارتكبته

قال في دهشة:

– إنها المرة الأولى التي أرى فيها من يكفر عن ذنبه بتلك الطريقة .. هل تعاقب نفسك بمطالعة تلك الكتب يا ابني؟

– على العكس يا عم شعبان .. إنني أكون سعيدا بينما أطالعها

– إذن فكيف ستكفر عن ذنبك بها؟

– إنها حكاية طويلة يا عم شعبان .. سأخبرك بها يوما حين يكون هناك متسعا من الوقت

– إذن فلن تخبرني بها أبدا

– لماذا يا عم شعبان؟

– لأنني ببساطة لم أرك يوما ولديك متسعا من الوقت .. إنك تتناول طعامك وأنت تطالع تلك الكتب .. ما هي حكايتك يا ابني؟

– وبم تفيدك حكايتي يا عم شعبان؟

– أشعر أنك إنسان طيب ولا أصدق أن مثلك يمكن أن يرتكب ذنبا يستحق كل هذا العناء .. إنك تحتاج إلى من يخفف عنك يا ابني .. إنني أعرفك منذ سنوات لم تبتسم خلالها ولو لمرة

– وكيف لمجرم أن يبتسم أو ينعم بالحياة؟

– مجرم؟

– بل وأكثر المجرمين إجراما يا عم شعبان

– تكلم يا ابني .. أخبرني بما حدث وتأكد انك ستستريح كثيرا

– لم يحن وقت الكلام بعد يا عم شعبان

– ومتى يحين الوقت يا ابني؟

– لدي فكرة لو استطعت تنفيذها سأكفر عن بعض ذنوبي وحينئذ سأخبرك بكل شيء

– في حق من ارتكبت ذلك الذنب يا ابني؟

ترقرقت الدموع في عينيه وهو يقول:

– في حق أعز الناس إلي يا عم شعبان وفي حق البشرية جمعاء

ربت على أحد كتفيه وهو يقول:

– إنني آسف يا ابني .. لم أقصد أن أذكرك بما مضى

– ومن أخبرك أنني نسيت ما مضى يا عم شعبان .. إنه أمام عيني على الدوام

قال في حيرة:

– إنني لا أفهم شيئا يا ابني .. ولكن ما دمت مصرا على ألا تتحدث فلن أرغمك .. لقد قصدت أن أخفف عنك فحسب

– لقد خففت عني يا عم شعبان .. لقد خففت عني بالفعل

* * *

جلست ريهام تداعب ابنتها وتلاعبها بقطار صغير أدارته ووضعته على الأرض وتركته يسير محدثا ضجيجا وهي تقول:

– انظري يا منار كم هو جميل هذا القطار

قالت الصغيرة في صوت هادئ حزين:

– وما الفائدة يا أمي .. إنني لا أراه

ترقرقت الدموع في عينيها وأمسكت بالصغيرة تضمها إلى صدرها في قوة وهي تقول:

– سترين بإذن الله يا ابنتي

– صحيح يا أمي؟

– بإذن الله يا حبيبتي

– متى يا أمي؟

– قريبا يا صغيرتي .. فلتصلي إلى الله ولن ينساك

– لقد صليت كثيرا يا أمي ورجوته كثيرا ولكنه لا يريد .. لا يريد أن يهبني النظر ولا يريد أن يعيد إلينا أبي

– فلتصلي كثيرا يا ابنتي عله يتحنن عليك وعلينا

– إنني لا أرى سوى الظلام يا أمي

جففت ريهام دموعها وهي تقول:

– ألن تلعبي اليوم مع صديقتك نسمه؟

– لن ألعب معها مرة أخرى يا أمي

– لماذا يا حبيبتي؟

– كلما لعبت معها سقطت أو اصطدمت بشيء في المنزل

– كل الأطفال أمثالك يسقطون يا حبيبتي

– ولكنها تسخر مني وتقول أنني كفيفة .. هل أنا كفيفة يا أمي؟

ظهر الألم على وجه ريهام وهي تقول:

– لا يا حبيبتي

– ما معنى كفيفة يا أمي؟

– لا عليك يا حبيبتي .. لا تفكري في الأمر .. من الآن فصاعدا سنلعب سويا

– ولكنك مشغولة دائما يا أمي

– فليذهب كل ما هو سواك إلى الجحيم يا ابنتي .. لن أتركك لمن يؤلمك أو يؤذي مشاعرك أبدا

– هل ستلعبين معي دوما يا أمي؟

– وقتما تشائين يا حبيبتي .. هيا نلعب الآن .. ماذا تريدين أن نلعب؟

– أي لعبة يا أمي

– حسنا سأعصب عينيك ولتحاولي أن تعثري علي يا حبيبتي

والتقطت قطعة من القماش لتعصب عيني الصغيرة فقالت في وداعة:

– لا داعي لقطعة القماش يا أمي

– ألا تريدين اللعب معي؟

– إنني لا أرى بها أو بدونها يا أمي

أحست ريهام وكأن سكينا يشق صدرها واندفعت الدموع عبر مقلتيها كالسيل الهادر وراحت تضم الصغيرة إلى صدرها وتقبلها وهي تقول:

– ليتني بدلا منك يا حبيبتي .. ليتني أستطيع أن أخفف عنك .. كلامك يا حبيبتي يزيد من عذابي

– ألن نلعب يا أمي؟

مسحت ريهام دموعها بإحدى راحتيها وهي تقول:

– بل سنلعب ونلعب حتى تتعبين

– هيا إذن يا أمي

أسرعت ريهام تختبئ خلف إحدى قطع الأثاث وهي تقول:

– هيا فلتبحثي عني يا منار

سارت منار في بطئ وراحت تتحسس طريقها بكلتا يديها ثم قالت:

– أين أنت يا أمي؟

قالت ريهام وهي تلحن كلماتها:

– حبيبتي ستعثر على أمها بمفردها

ضحكت الصغيرة في جذل وهي تقول:

– لقد عرفت مكانك يا أمي

وأسرعت تعدو تجاهها

صرخت ريهام تحذرها من منضدة تقبع في طريقها ولكن الصغيرة كانت قد تعثرت بها بالفعل وسقطت على الأرض في قوة وانهمرت الدماء من رأسها .. أسرعت ريهام نحوها بأقصى ما تستطيع من قوة وارتمت على الأرض بجوارها وهي تصرخ في لوعة:

– منار حبيبتي .. ويلي أنا السبب

نهضت الصغيرة من سقطتها وربتت على ظهر والدتها وهي تقول:

– لا تنزعجي يا أمي .. إنه جرح بسيط

نهضت ريهام عن الأرض وأسرعت تحضر بعض القطن والمطهر وراحت تنظف الجرح الذي كان ينزف بينما ينزف قلبها ..

أكثر وأكثر

* * *

فتح الأستاذ حامد باب شقته ودلف إلى الداخل في هدوء .. أسرعت ريهام نحوه وهي تقول:

– أبي لقد قلقت عليك للغاية .. لماذا تأخرت؟

– دعك من هذا الآن فلدي مفاجأة ستسعدك

قالت في حزن:

– لم يعد هناك ما يسعدني يا أبي

– هذا الخبر سيسعدك

– لقد هجرت السعادة حياتي يا أبي ولولا تلك المسكينة منار لانتحرت منذ سنوات

– لا تكفري بالله يا ابنتي

– لم أعد أحتمل يا أبي

– اصبري يا ابنتي

– وبما سيفيدني الصبر يا أبي؟ .. هل سيعيد النظر إلى عيني ابنتي؟ .. قلبي ينفطر كلما سألتني لماذا لا أرى مثل صديقاتي يا أمي؟

ثم دمعت عيناها وهي تستطرد:

– هل يمكنك أن تخبرني بما أجيبها؟

– فليكن إيمانك بالله قويا يا ابنتي .. إنه قادر على كل شيء وهو رحيم بعباده وكما خلق الداء خلق الطب والدواء

– أي طب وأي دواء يا أبي؟ .. لم نترك بابا إلا وطرقناه .. لقد أجمع الأطباء على استحالة شفائها فقد ولدت بذلك الضمور في شبكية عينيها

– ألم يخلق الله الإنسان من طين يا ابنتي؟

– بلى يا أبي

– أيعجز عن إعادة النور إلى عينيه إذن؟

– لقد انتهى زمن المعجزات يا أبي

– ما دام الله موجودا سيظل الأمل وتظل المعجزات

– ونعم بالله

– ألا تريدين سماع الخبر الذي أحمله لك؟ .. إنني متأكد أنه سيسعدك

– لكم أتمنى أن يسعدني شيء يا أبي!

– لقد قابلت اليوم صديق قديم انتقل للعيش بالإسكندرية

– أهذا ما سيسعدني يا أبي؟

– انتظري يا ابنتي ولا تتسرعي .. لقد دعوته ليشرب الشاي معي على أحد المقاهي وبينما نتحدث سألني عن عمرو وأحواله ولما أخبرته بأننا لا نعلم عنه شيئا وأنه متغيب منذ خمس سنوات دهش للغاية وأخبرني أنه قد قابله بالصدفة في الإسكندرية منذ أسبوع

هتفت في فرحة غامرة:

– وهل عرف عنوانه يا أبي؟

– للأسف يا ابنتي

تلاشت فرحتها دفعة واحدة وهي تقول:

– وما الفائدة إذن؟

– لقد سأله عن عنوانه فأخبره أنه يعيش في فندق ووعده بأن يتصل به حين يستقر

– لن يفعل يا أبي .. واضح أنه كان يتهرب منه

– ولو يا ابنتي .. لقد كان عمرو في منطقة المعمورة وهي منطقة ليست كبيرة سأسافر في الغد وأبحث عنه في كل مكان حتى أجده

– قالت في لهفة:

– صحيح يا أبي؟

– أعدك ألا أعود من دونه أبدا يا ابنتي .. أبدا

* * *

ارتفع رنين جرس الباب بطريقة متواصلة .. أسرعت ريهام نحوه وما أن فتحته حتى اتسعت عيناها وراحت تحملق فيمن يقف أمامها .. لم تكن تصدق ما ترى .. كادت أن تفقد وعيها من شدة فرحتها .. كانت ترى عمرو أمامها .. نعم إنه هو.. إنه عمرو بشحمه ولحمه .. أيمكن أن تكون تلك هي الحقيقة أم أن ما ترى مجرد خيال؟ .. أغمضت عينيها ثم أعادت فتحهما حتى تتأكد أن ما أمامها هو الواقع بعينه وما أن تيقنت تماما حتى ارتمت في حضنه وهي تهتف في سعادة غامرة:

– عمرو

ضمها عمرو إلى صدره في قوة وهو يقول:

– لكم افتقدتك يا حبيبتي

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول:

– خمس سنوات يا عمرو؟

– سامحيني يا حبيبتي

راحت تبكي بقوة ودموعها تنهمر كالسيل وهي تقول:

– لماذا يا عمرو؟ .. لماذا كل هذه القسوة؟

– لم أستطع أن انظر في عينيك بعد ما فعلت

– سامحني .. لقد قسوت عليك كثيرا

– بل أنا من يرجوك أن تسامحيه

– سامحتك من كل قلبي يا عمرو ولكن لابد وأن تعدني بألا تتركنا ثانية

– أعدك يا حبيبتي .. أعدك

– فلتقسم بأغلى ما لديك

– أقسم بحبي لك

– أين منار؟ .. لقد افتقدتها كثيرا

خرجت منار من حجرتها وهي تتحسس طريقها بيديها الصغيرتين بينما تنادي:

– أمي .. أين أنت يا أمي؟

– إنني هنا يا حبيبتي

نظر عمرو نحو منار وأحس بقلبه ينفطر وهو يراها تتجه نحو أمها بينما تتخبط بكل ما في طريقها .. سالت دموعه في غزارة حتى أغرقت كلتا وجنتيه وهو يقول في أسى:

– لقد كبرت كثيرا يا حبيبتي

وأسرع نحو الصغيرة التي ما أن شعرت به حتى أسرعت تختبئ خلف والدتها وتحتمي بملابسها .. حملت ريهام الصغيرة بين ذراعيها وهي تقول:

– منار حبيبتي .. إنك تسألينني دوما عن والدك .. ها هو والدك قد عاد يا منار .. ألا تريدين أن تقبلينه؟

ترددت الصغيرة قليلا ثم مدت ذراعيها مفتوحتين نحوه وهي تهتف وقد امتلأت عيناها بالدموع:

– أبي .. لقد افتقدتك كثيرا يا أبي

اختطفها عمرو من بين ذراعي ريهام وراح يحتضنها ويضمها إلى صدره في قوة بينما تهتف الصغيرة في فرحة غامرة من بين دموعها:

– أبي .. أبي

راح عمرو يدور بالصغيرة وهو يضمها أكثر وأكثر إلى حضنه ويقبل وجنتيها بينما يقول:

– منار حبيبتي .. سامحيني يا ابنتي .. سامحيني أرجوك

– لا تتركنا ثانية يا أبي

– أبدا يا حبيبتي لن أترككم أبدا

قالت الصغيرة في سعادة غامرة:

– وهل سنعيش معا على الدوام؟

– ليس على الدوام يا حبيبتي

– قالت في حزن مفاجئ:

– لماذا يا أبي؟

– لأن منار حبيبتي ستكبر سريعا وتصبح عروسا جميلة وتتزوج وتبعد عن أبيها حبيبها

قالت في جذل طفولي:

– لن أبتعد عنك أبدا يا أبي

قبل كلتا وجنتيها وهو يقول:

– ولا أنا يا حبيبتي

تحسست منار وجهه بإحدى يديها الصغيرتين وهي تقول:

– كنت أتمنى أن أراك يا أبي

– لماذا يا حبيبتي؟

– لأرى إن كنت كما تقول أمي

– وماذا تقول أمك يا حبيبتي؟

– تقول أنك وسيم للغاية

نظر إلى ريهام وهو يبتسم ويقول:

– هل قالت لك ذلك؟

داعبت ريهام الصغيرة وهي تقول:

– ألا ائتمنك على سر يا حبيبتي؟

ابتسمت الصغيرة وهي تقول:

– اطمئني يا أمي لن أخبره بأنك تحبينه

– لن أشاركك أسراري ثانية

التفتت الصغيرة إلى أبيها وهي تقول:

– أين كنت يا أبي؟

– كنت أبحث عن علاج لعيني منار حبيبتي

صاحت في فرحة غامرة:

– وهل وجدته يا أبي؟

– لقد أقسمت ألا أعود من دونه يا حبيبتي

– صحيح يا أبي

– نعم يا حبيبتي

– وهل سأرى يا أبي؟

– نعم يا حبيبتي

– وهل سأجري وألعب مع صديقاتي؟

– ضمها إلى صدره بينما سالت دموعه وهو يقول:

– ستجرين وتلعبين يا حبيبتي

– وهل سأراك يا أبي؟

– سأريك الدنيا كلها يا ابنتي وسأعوضك كل ما فاتك رؤيته

– متى يا أبي؟

– غدا إن شاء الله يا حبيبتي

دمعت عيناها وهي تقول:

– ألا يأتي هذا الغد أبدا يا أبي؟

مسح دموعها بإحدى راحتيه وهو يقول:

– أعدك سترين يا أغلى من حياتي .. سترين بإذن الله

* * *

حملق الدكتور زاهر عبد الرحمن في وجه عمرو في دهشة واستنكار وهو يقول:

– مستحيل .. ما تطلبه مستحيل

– لماذا يا دكتور؟

– إنه ممنوع قانونا

– أرجوك يا دكتور

– قلت لك مستحيل .. مستحيل

– سأوقع لك تعهدا بأنني المسئول

– إنني من سيحاكم لو حدث خطأ ما

– لن يحدث يا دكتور .. أقسم لك .. لو لم أكن متأكدا تماما فهل سأعرض ابنتي للخطر؟

– وما خبرتك في هذا الموضوع حتى تقسم على ذلك؟

– إنني أعرف كل كبيرة وصغيرة عن العيون يا دكتور

– لا تبالغ يا أستاذ عمرو

– إنني لا أبالغ يا دكتور .. إنني لم أترك كتابا عن العيون ولم أدرسه

– ولكن تلك الكتب تحتاج إلى سنوات

– لقد استغرقت دراستي لها خمس سنوات كاملة .. خمس سنوات كنت أوصل خلالها الليل بالنهار

– ولماذا كل ذلك؟

– لأكفر عن ذنب ارتكبته يا دكتور

– ذنب؟

– إنها قصة طويلة أعدك أن أخبرك بها بالتفصيل بعد إجراء العملية

– قلت لك مستحيل .. مستحيل

– أرجوك يا دكتور ساعدني على التكفير عن ذنبي وستستفيد أنت أيضا

– وبما سأستفيد؟

– ستصبح أشهر طبيب عيون

– ولكنني بالفعل أشهر طبيب عيون في مصر

– ستصبح الأشهر على مستوى العالم يا دكتور

– ولكنني سأغامر بمستقبلي العلمي

– لن تغامر يا دكتور .. لو حدث مكروه فأنا والد الطفلة ولن أتقدم بشكوى ولن يعلم أحد بما حدث كما أن الطفلة لن تتأثر فماذا يضير الشاه سلخها بعد ذبحها؟

– كلامك منطقي بعض الشيء ولكن ..

– سأدفع لك الأتعاب كاملة بعد أن أسوق اختراعي .. صدقني يا دكتور لقد جربت تلك الشريحة على حيوانات التجارب ونجحت نجاحا باهرا

– ولكن حالة ابنتك تختلف عن حيوانات التجارب

– فيم تختلف يا دكتور؟

– الشبكية لدى ابنتك ضامرة كما فهمت

– وما حاجتنا للشبكية يا دكتور .. ستحل شريحة السليكون التي ابتكرتها محل الشبكية وتحول الصورة الساقطة عليها إلى نبضات كهربية هي نفس النبضات التي يترجمها المخ إلى الصورة التي نراها

– الفكرة عبقرية يا أستاذ عمرو ولكن ..

– إنني واثق من نجاحها يا دكتور

– على بركة الله إذن

اندفع نحو الطبيب يحتضنه في قوة وهو يقول:

– أشكرك يا دكتور وأعدك ألا تندم أبدا .. ولكن متى ستجري العملية؟

– بعد أسبوع على الأقل

– ولم ليس الآن؟

– العملية تحتاج إلى تحضير و..

– صدقني يا دكتور .. ابنتي تتعذب مع كل يوم يمر

– لقد تعذبت كثيرا ولن يضيرها أن تتعذب أياما قليلة باقية .. ذاك أفضل من فشل العملية لا سمح الله

– ولكنني وعدتها أن ترى في الغد

– أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد

* * *

استلقت منار على فراش أبيض بالمستشفى بينما جلس عمرو إلى أحد المقاعد وإلى جواره الأستاذ حامد بينما جلست ريهام إلى مقعد على الجانب المقابل وهي تربت على صدر الصغيرة وتقول:

– كيف حالك يا صغيرتي؟

– عيناي تؤلمانني يا أمي

– إنه بسبب الجراحة وسيزول سريعا بإذن الله يا حبيبتي

– ألم تنتهي الجراحة يا أمي؟

– بلى يا حبيبتي

– فلماذا لا أرى إذن؟

– سترين يا حبيبتي .. سترين بإذن الله

– متى يا أمي؟ .. متى؟

– حين ينزع الطبيب الرباط عن عينيك

– ولم لا ينزعه الآن؟

– لكل شيء أوان .. اصبري يا حبيبتي .. لقد صبرت كثيرا ولم يبق سوى القليل

– إنني لا أطيق صبرا حتى أراك يا أمي .. أبي أخبرني بأنك فاتنة

ابتسمت ريهام في سعادة وهي تنظر نحو عمرو وتقول:

– أبوك أخبرك بذلك؟

– نعم يا أمي

– عموما سينزع الطبيب الرباط غدا يا حبيبتي

– وهل سأرى يا أمي؟

– بإذن الله يا حبيبتي .. فلتقولي يا رب

رفعت يديها الصغيرتين وهي تدعو الله:

– يا رب

ثم التفتت نحو الأستاذ حامد وهي تقول:

– وهل سنلعب سويا يا جدي؟

– طبعا يا حبيبتي سنلعب ونلهو ونذهب إلى حديقة الحيوان

– وهل سنرى الفيل؟

– سنرى الفيل والأسد والزرافة وكل حيوانات الغابة

صفقت الصغيرة بيديها الصغيرتين في سعادة وهي تقول:

– وهل ستأخذني إلى النادي يا جدي؟

– طبعا يا حبيبتي سآخذك إلى النادي والملاهي وإلى كل مكان تريدين

– وهل سأذهب إلى المدرسة؟

– عندما تكبرين يا حبيبتي

– أو لست كبيرة يا جدي؟

– بلى .. أنت كبيرة يا حبيبتي

اقترب عمرو منها وقبل وجنتيها وهو يقول:

– ستذهب حبيبتي إلى النادي وتترك أباها وحيدا؟

أراحت الصغيرة كفيها الصغيرين على كلتا وجنتيه وهي تقول:

– سآخذك معي .. إنني أحبك جدا يا أبي

– وأنا أحبك يا صغيرتي

– ولكنني سأحبك أكثر حين أراك

– ستريننني يا حبيبتي .. ستريننني وترين الدنيا كلها .. كلها بإذن الله

* * *

دلف الدكتور زاهر إلى حجرة منار واتجه نحوها بينما ترقد على فراشها ومن حولها وقف الجميع في ترقب بادرته ريهام قائلة:

– هل ستزيل الرباط يا دكتور؟

– بإذن الله يا سيدتي

– وهل سترى يا دكتور؟

– جميعنا متشوقون لمعرفة النتيجة يا سيدتي

واقترب من الصغيرة وراح يزيل الرباط عن عينيها بينما كتم الجميع أنفاسهم وراحوا يحملقون في الرباط بشدة .. كادت قلوبهم أن تتوقف عندما انتهى الطبيب وفتحت الصغيرة عينيها في بطء ثم نظرت نحو أمها وهي تقول:

– لكم أنت جميلة يا أمي

ارتسمت الفرحة على وجوه الجميع واغرورقت عينا ريهام بدموع الفرح وتهدج صوتها وهي تقول:

– هل..؟ .. هل ترينني يا حبيبتي؟

– نعم يا أمي

اندفعت نحوها واختطفتها بين ذراعيها وراحت تقبل وجنتيها ودموعها تسيل في غزارة

اقترب عمرو منهما وهو يقول لمنار:

– وما رأيك في أبيك يا حبيبتي؟

– أنت أكثر وسامة مما تخيلت يا أبي

اختطفها من بين ذراعي والدتها واحتضنها بقوة بينما تغرق دموع الفرح عينيه وهو يقول:

– وأنت أجمل زهرة في الوجود يا حبيبتي

– لكم أحبك يا أبي .. إنك الوحيد الذي لم تخدعني حين وعدتني أن أرى

قبل وجنتيها وهو يقول:

– هل سامحتني يا حبيبتي؟

– إنني أحبك من كل قلبي يا أبي

– وأنا أعشقك يا صغيرتي .. أعشقك بكل جوارحي

* * *

انـدفع النقيـب سـالم سـرحان إلـى مكتـب المقـدم شـريف زيـدان فـي مبنـى المخابرات العامة المصرية واقتحمه دون استئذان وهو يقول في حماس:

– مفاجأة يا سيد شريف .. مفاجأة مذهلة

– ما هي؟ .. تكلم

– عمرو الشناوي

شرد للحظات بدا عليه خلالها وكأنه يبحث في ذاكرته عن صاحب الاسم ولاحظ النقيب سالم شروده وحيرته فاستطرد قائلا:

– ألا تذكر عمرو الشناوي؟

– الاسم ليس غريبا و ...

– ألا تذكر كارثة الدقي؟

تذكر كل شيء دفعة واحدة فقال في دهشة:

– عمرو الشناوي .. ما الذي ذكرك به الآن؟

– لقد عثرنا عليه

– بعد كل تلك السنوات؟

– وبعد أن فقدنا الأمل في العثور عليه تماما

– وأين عثرتم عليه؟

– في منزله

نظر إليه في دهشة وهو يقول:

– ماذا تقول؟

– صدقني يا سيد شريف فهذا ما حدث بالضبط

– هل تعني أنه كان مختبئا في منزله لخمس سنوات كاملة دون أن ندري؟

– إنني لم أقصد ذلك بالطبع

– ماذا تقصد إذن؟

– لقد عاد إلى منزله

– بتلك البساطة؟

– إنه لا يعلم بما حدث خلف الكواليس

– لقد انقلبت الدنيا بسببه

– لا تنسى أن ما حدث كان سرا ولم يعلن على الملأ

– ولكن كيف علمتم بعودته؟ .. هل استمر رجالنا في مراقبة منزله حتى الآن؟

– وهل كنا لنستمر في مراقبته لخمس سنوات كاملة؟

– كيف علمتم إذن؟

– أخباره تملأ الصحف

نهض عن مكتبه وهو يهتف في ارتياع:

– ماذا تقول؟

بدا الارتباك على ملامحه وهو يقول:

– إنه يقيم مؤتمرا صحفيا مشتركا مع الدكتور زاهر عبد الرحمن للإعلان عن اكتشاف خطير

– إنها مصيبة .. كارثة .. لابد من منع إقامة ذلك المؤتمر بأي طريقة

ألقى النقيب سالم نظرة على ساعة يده وقال:

– ولكن المؤتمر بدأ بالفعل يا سيد شريف

– هل يمكن أن يعلن عن سر جهازه للعالم أجمع؟

– مستحيل .. ربما اخترع شيئا آخر

– حتى لو افترضنا أن ما تقول صحيح فمازال المؤتمر يمثل كارثة

– لماذا؟

– مؤتمر كهذا ستتناقل أخباره كل وكالات الأنباء وهذا يكفي لفتح أبواب جهنم مجتمعة .. ألا تذكر ما حدث منذ خمس سنوات؟

– ما حدث لا يمكن أن ينسى

– ألا تذكر الخبراء الأمريكيين وكيف توصلوا إلى الحقيقة كاملة؟

– هل تظنهم سينتبهون إلى شخصيته؟

– بكل تأكيد .. كان ينبغي أن تصادروا تلك الصحف

– ولكنه خبر عادي ولا يصلح كذريعة لمصادرة صحيفة إننا في عهد الحريات و..

قاطعه في غضب قائلا:

– تبا لتلك الحريات .. الدولة بأكملها معرضة للخطر .. ألا تفهم؟

قال في ارتباك:

– لقد مرت خمس سنوات كاملة على اختفائه ولم ينتبه رجالنا إلا الآن

– فلنتصرف في ضوء ما لدينا إذن

– إنني أنتظر أوامرك يا سيد شريف

– أريد عمرو الشناوي في مكتبي وبأقصى سرعة ممكنة ولتوقفوا ذلك المؤتمر ولتمنعوا نشر أخبار عنه قدر استطاعتكم

– علم .. علم وينفذ يافندم

* * *

وقف الدكتور زاهر عبد الرحمن خلف منصة صغيرة في ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده خصيصا ليعلن نجاحه في زرع الشريحة التي ابتكرها عمرو على العالم أجمع كان يقول عبر الميكروفون في زهو واضح:

– سيداتي وسادتي

إننا اليوم أمام اكتشاف سيهز الدنيا بأسرها .. اكتشاف سيحدث طفرة في طب العيون .. منذ الآن لن يحرم إنسان من نعمة البصر .. لن يكون هناك كفيف واحد على وجه الأرض .. الجميع سيرى الدنيا .. الجميع سيستمتع بمناظرها الخلابة .. أعلن إليكم يا سادة وبكل فخر أنه قد تم وبنجاح منقطع النظير زراعة ..

انقطع كلامه فجأة مع انقطاع التيار الكهربائي وساد الظلام أرجاء القاعة وساد الهرج والمرج ولم يعد يسمع غير همهمات الحضور الساخطة .. غمغم الدكتور زاهر في ضيق:

– يا للحظ العاثر

ثم رفع صوته يهتف بالحضور قائلا:

– فليثبت الجميع في أماكنهم .. سيتم تشغيل المولد الاحتياطي على الفور

مرت دقائق قبل أن يعود التيار .. وعادت الأضواء لتلمع من جديد ولكنها عادت بمفاجأة .. مفاجأة من العيار الثقيل .. لقد اختفى الدكتور زاهر .. اختفى تماما ولم يعد له أدنى أثر .. راح الجميع يحملقون في مكانه الذي بدا خاليا وضجت القاعة بتساؤلات الصحفيين .. مرت لحظات والعيون تبحث عنه في كل مكان من دون جدوى .. فجأة دوت صرخة تحمل لوعة الدنيا كلها .. صرخة جذبت إليها كل العيون .. كانت ريهام هي من أطلق تلك الصرخة .. نهض عمرو عن مقعده في سرعة واقترب منها في قلق بالغ بينما التف الصحفيون حولهما يلتقطون لهما مئات الصور .. كان وجهها شاحبا كالموتى .. صرخ بها في لوعة:

– ماذا حدث؟ .. تكلمي

قالت من بين دموعها:

– منار

– ماذا بـ ..

قطع كلامه وقد لاحظ غياب الصغيرة فاستطرد في قلق:

– أين .. أين هي؟

– لقد اختفت

حاول أن يهدئ من روعها على الرغم من القلق الذي تصاعد بداخله وكاد أن يعصف به

– لعلها تلعب هنا أو هناك .. اطمئني سأبحث عنها في كل مكان

وأسرع يخترق الحلقة التي صنعها الصحفيون حولهما ويدفعهم في عنف بعيدا عنه وعن زوجته وراح يبحث عن الصغيرة ..

بحث خلف المنصة ..

وخلف المقاعد ..

رفع السجاد ..

فتش القاعة بأكملها ..

بحث في كل مكان ..

بمرور الوقت كان قلقه يتضاعف ..

ويتضاعف ..

وأمله في العثور على الصغيرة يتضاءل ..

ويتضاءل ..

حتى تلاشى ..

تماما

* * *

دلف عمرو إلى شقة الأستاذ حامد وخلفه ريهام تبكي في مرارة وأغلق الباب ثم اقترب منها وربت على أحد كتفيها محاولا تهدئتها رغم ما يستعر في صدره من نيران متأججة ورغم المرارة التي يغص بها حلقه إلا أن محاولاته باءت بالفشل ولم تزدها إلا بكاءا على بكائها وحزنا على حزنها وما لبثت أن أبعدت يده عنها في عنف وهي تصرخ به في هستيرية:

– إنني أكرهك .. ابتعد عني .. ابتعد أرجوك

خرج الأستاذ حامد من حجرته وهو يتثاءب ويفتح عينيه بصعوبة ثم قال:

– ماذا حدث؟ .. ماذا حدث يا جماعة؟

أسرعت ريهام نحوه وارتمت في حضنه وهي تواصل بكائها في مرارة

فربت على ظهرها وهو يقول:

– ماذا حدث يا ابنتي؟ .. هل تشاجرتما؟

واصلت بكاءها دون أن تجيب مما جعله ينظر نحو عمرو متسائلا:

– ماذا حدث يا ابني؟

– مصيبة يا عمي .. مصيبة

– لا سمح الله يا ابني .. ماذا حدث بالضبط؟

بحث عن منار بعينيه في كل اتجاه ولما لم يجدها تضاعف قلقه واستطرد قائلا في توجس:

– أين منار؟

أطرق عمرو نحو الأرض وهو يقول:

– لقد اختطفت يا عمي .. لقد اختطفت

أحس الأستاذ حامد بقلبه يسقط بين قدميه وبدا عليه وكأنه لا يصدق أذنيه وهو يهتف بعمرو قائلا:

– ماذا تقول يا ابني؟

دمعت عينا عمرو وهو يقول في أسى:

– هذا ما حدث للأسف يا عمي؟

– وهل؟ .. هل أبلغتم الشرطة؟

– نعم ولقد فتشوا المنطقة بأسرها ولم يعثروا لها على أثر

– وما الذي جعلكم تجزمون بأنها قد اختطفت؟ .. ألا يحتمل أن ..

– الدكتور زاهر يا عمي .. لقد اختفى أيضا

اتسعت عيناه في ارتياع وهو يقول؟

– الدكتور أيضا؟ .. ألا يحتمل أن يكون هو من ..

قاطعه عمرو قائلا:

– مستحيل يا عمي .. ما الذي يدفعه إلى ذلك؟

– ربما أراد أن يسرق اختراعك وينسبه لنفسه؟

– ولكنه دكتور محترم يا عمي

– لماذا اختفى في نفس الوقت إذن؟

– لا أدري ولكن ..

– إنه هو ولا شك

– أقسم أن أقتله لو ثبت أنه من فعلها

لم تنقطع ريهام لحظة واحدة عن البكاء .. حاول والدها تهدئتها بلا جدوى مما دفع بعمرو إلى أن يصرخ بها:

– لابد وأن تهدئي حتى نفكر في حل لتلك المصيبة

ابتعدت عن حضن أبيها وصرخت به في هستيرية:

– تلك المصيبة أنت من تسبب فيها .. أنت السبب في ضياع منار .. أنت السبب

صرخ في استنكار:

– أنا؟ .. أنا السبب؟

تدخل الأستاذ حامد قائلا:

– اهدؤوا يا جماعة .. اهدؤوا أرجوكم

واصلت صراخها:

– نعم .. أنت السبب .. أنت السبب في كل مصيبة حلت بنا

قال في عصبية:

– أنا الذي طلبت منهم اختطاف ابنتي؟

– أنت من فتح علينا أبواب جهنم .. ماذا كنت تنتظر؟

صاح في حنق:

– أبواب جهنم .. أبواب جهنم .. ارحميني

– ولماذا لم ترحمنا أنت؟

تدخل الأستاذ حامد موجها كلامه إلى ابنته قائلا:

– النقاش لا يكون بمثل تلك الطريقة يا ابنتي

قال عمرو مستنكرا:

– تتحدثين كما لو أنها ليست ابنتي

– لو كنت تمتلك مشاعر الأبوة لما فعلت ذلك بابنتك

– أنا من فعل بها ذلك؟

– نعم .. أنت

– إنني أكاد أجن

اتجه الأستاذ حامد نحوه وربت على ظهره وهو يقول:

– اهدأ يا ابني .. اهدأ أرجوك

عاودت ريهام صراخها قائلة:

– لقد رجوتك كثيرا أن نعيش بعيدا عن الأضواء .. رجوتك أن نعيش في سلام

– كيف؟

– ما فائدة ذلك المؤتمر اللعين؟

– افهمي أرجوك ..

– ماذا تريدني أن أفهم؟ .. إنني أفهم الآن .. أفهم أنك أناني لا تحب إلا نفسك

– أنا أحب نفسي؟

– ولا تحب سواها .. لقد أردت المجد والشهرة .. ولكن ما الثمن؟ .. ابنتك؟ .. لا يهم .. يا له من ثمن بخس!

– افهمي أرجوك .. لم يكن بيدي أن ألغي المؤتمر

– بيد من إذن؟

– لقد أجرى العملية الدكتور زاهر عبد الرحمن أشهر طبيب عيون في مصر .. أما سألت نفسك كيف سندفع له؟

– نبيع ابنتنا لندفع له .. أليس كذلك؟ .. أليس هذا هو الحل؟

– وهل كنا نتوقع ما حدث؟

– ماذا كنت تتوقع إذن؟ .. الشهرة؟ .. المال؟

– أليس هذا ما أستحق؟ .. ثم لماذا أريدهما؟ .. أليس من أجلكما؟

– بل لترضي غرورك وتشبع نفسك الجشعة
– إنني أعجب لك .. أما لديك أي طموح؟
– طموحي أن أعيش في سلام لأربي ابنتي
– وكيف كنت ستربينها في ظل ذلك الفقر المدقع الذي يحيط بنا؟
– الفقر أفضل مما وصلنا إليه الآن
– صدقيني .. إنه القدر وما كان ليتغير أبدا
– لقد كنا نعيش في سلام .. ليتك ما عدت .. ليتك ما عدت أبدا
أحس عمرو بتلك الكلمات وكأنها خناجر رشقت في قلبه وزلزلت كيانه .. شعر بأنه يختنق .. فتح فاه يلتقط دفقه من الهواء .. أحس وكأن الهواء يأبى أن يدخل رئتيه .. خفف من إحكام رابطة عنقه إلا أن ذلك لم يخفف عنه كثيرا مما دفعه إلى أن ينتزعها ويلقي بها بعيدا .. لم يشعر بنفسه إلا ورجلاه تحملانه ليخرج من الشقة
هتف به الأستاذ حامد:
– انتظر يا ابني .. انتظر أرجوك
تجاهله تماما وواصل اندفاعه نحو الشارع وكأن شياطين الدنيا تطارده وراح يهيم في الشوارع والطرقات بلا هدف ..
بلا هدف على الإطلاق

* * *

سار عمرو في طريقه تحمله قدماه حيث تشاء .. لم يكن يشعر بما حوله .. كان رأسه يغلي كمرجل .. سمع صوت زوجته يدوي في رأسه:

– لقد كنا نعيش في سلام .. ليتك ما عدت .. ليتك ما عدت أبدا

أغلق كلتا أذنيه براحتيه إلا أن صوتها ظل يتردد بداخله:

– إنني أكرهك .. ابتعد عني .. ابتعد أرجوك

ترقرقت الدموع في عينيه وما لبثت أن سالت على وجنتيه وأغرقتهما تماما خاصة بعد أن وصلت به أفكاره إلى ابنته منار رآها في خياله وتردد صوتها بداخله:

– أين كنت يا أبي؟

– كنت أبحث عن علاج لعيني منار حبيبتي

– وهل وجدته يا أبي؟

– لقد أقسمت ألا أعود من دونه يا حبيبتي

– صحيح يا أبي

– نعم يا حبيبتي

– وهل سأرى يا أبي؟

– نعم يا حبيبتي

– وهل سأجري وألعب مع صديقاتي؟

– ستجرين وتلعبين يا حبيبتي

– وهل سأراك يا أبي؟

– سأريك الدنيا كلها يا ابنتي وسأعوضك كل ما فاتك رؤيته

– متى يا أبي؟

– غدا إن شاء الله يا حبيبتي

– ألا يأتي هذا الغد أبدا يا أبي؟

وراح يتمتم:

– مسكينة تلك الفتاه .. كل ذنبها أنها ابنتي

عاد يسبح في بحار أفكاره .. ترى أين أنت الآن يا ابنتي؟ .. أما كفاك عذابا؟ .. أما كفاك ما عانيت من ظلام؟ .. ترى من ذا الذي يملك قلبا يطاوعه على تكدير تلك البراءة الصافية؟ .. يبدو أنني لم أورثك سوى حظي العاثر .. لك الله يا ابنتي .. لك الله

انتبه فجأة على صوت أبواق السيارات وهي تدوي في أذنيه بطريقة متواصلة .. وجد نفسه دون وعي منه يعبر الطريق مما أدى إلى أزمة مرورية .. رأى بعض قائدي السيارات يشوحون بأيديهم في غضب ويصرخون به بعبارات لم يتبينها إلا أنها كانت تعبر بوضوح عن غضبهم .. أسرع يعبر الشارع في عجالة قبل أن يعود إلى أفكاره ثانية .. لابد وأن أعثر علي منار .. لابد .. ولكن كيف؟ .. لابد وأن أستعيدها .. لابد وأن أستعيدها لأستعيد حياتي .. لن يكون للدنيا طعم من دونها

رفع صوته قائلا:

– ولكن كيف؟ .. كيف؟

نظر المارة نحوه في دهشة وانتبه على صوت أحدهم يسأله:

– هل تحدثني يا أستاذ؟

قال في ارتباك:

– لا .. لا .. أشكرك .. لقد كنت أفكر بصوت عال

انصرف الرجل من أمامه ولكنه لاحظ أن بعض المارة يحملقون به .. سمع أحدهم يقول لرفيقه:

– يبدو أنه مجنون

واصل طريقه دون أن يعيرهم أدنى اهتمام وراح يلقي بنفسه في غمام أفكاره من جديد إلا أنه ما لبث أن أفاق منها على إثر اصطدامه برجل اعترض طريقه فجأة بدا واضحا من ملامحه أنه ليس شرقيا .. نظر عمرو نحوه وهو يتمتم:

– آسف .. لم أقصد

أجابه الرجل بالعربية ولكن بلكنة أجنبية:

– لا داعي للأسف

ابتعد عمرو عن طريقه ولكن الرجل وضع إحدى راحتيه عل كتفه وهو يقول:

– إننا نريدك معنا

حملق به عمرو وهو يقول:

– من أنتم بالضبط؟

– ستعرف فيما بعد

– لن أذهب معكم قبل أن أعرف

– لا وقت للشرح .. هيا

ودفعه الرجل أمامه .. أراد عمرو أن يصرخ إلا أنه شعر بغصة في حلقه منعته من النطق تماما .. لاحظ أن بعض المارة ينظرون نحوه .. نظر إليهم في توسل عل أحدهم يهب لنجدته إلا أن أحدهم لم يبد حراكا .. كانوا

كتماثيل من الشمع .. لم يجد بدا من أن ينقاد مع الرجل الذي دفعه داخل سيارة متوقفة على جانب الطريق واندفع خلفه وانطلقت السيارة بهما .. بأقصى سرعة

* * *

– مستحيل يا أبي .. مستحيل

نطقت ريهام بتلك العبارة وهي تبكي في مرارة .. اقترب منها والدها وربت على أحد كتفيها وهو يقول:

– اهدئي يا ابنتي .. اهدئي أرجوك

واصلت بكائها وهي تقول:

– مستحيل يا أبي .. عمرو لا يمكن أن يفعلها ثانية .. مستحيل

– اطمئني يا ابنتي .. سيعود بإذن الله

– متى يا أبي؟ .. لقد أوشك الفجر على البزوغ

– لعله يبحث عن ابنته و..

قاطعته قائلة من بين دموعها:

– كان ينبغي أن يقف إلى جواري .. أن يساندني في تلك الظروف لا أن يزيد همومي هما

– فلتستريحي قليلا يا ابنتي وسيعود بإذن الله

مسحت بعضا من دموعها وهي تقول:

– لم تعد هناك راحة يا أبي

– لابد وأن تستريحي حتى تستطيعي أن تواصلي يا ابنتي

واصلت بكائها وهي تقول:

– لن أستريح حتى استعيد أسرتي

ثم اندفعت نحو الباب تهم بالخروج .. أسرع والدها نحوها وأمسك بإحدى يديها وجذبها نحوه في عنف وهو يقول:

– هل جننت؟

نظرت إليه مشدوهة وهي تقول:

– جننت لأنني أريد استعادة أسرتي؟

– أتدرين كم الساعة الآن؟

– أسرتي فوق كل التقاليد

– إنني أخاف عليك يا ابنتي

– ماذا يمكن أن يحدث لي؟ .. ليتني أموت لأستريح

– افهميني يا ابنتي .. وجود امرأة بمفردها في ذلك الوقت المتأخر يفسر بطريقة خاطئة و..

صرخت قائلة:

– فليفسر كما يفسر .. لن يمنعني ذلك من البحث عن أسرتي .. لن يمنعني من استعادة حياتي

اقترب منها وربت على أحد كتفيها وهو يقول:

– اهدئي يا ابنتي .. اهدئي ولا تجعلي غضبك يخرجك عن صوابك .. إن غدا لناظره قريب

ثم أحاط كتفيها بذراعه ودفعها برفق لتسير إلى جانبه نحو غرفتها وهو يقول:

– هيا يا ابنتي .. فلتطيعي والدك

سارت معه في هدوء وهي تقول:

– ولكن يا أبي ..

– صدقيني يا ابنتي .. هذا لمصلحتك

نظرت إليه في عتاب قائلة:

– مصلحتي أن أنام وأترك أسرتي للضياع؟

– اطمئنـــــي يـــــا ابنتـــــي .. ســـــأبحث عنهمـــــا فـــــي كـــــل مكـــانٍ

ثم فتح باب حجرتها وأضاء نورها ودفعها برفق إلى سريرها وهو يستطرد:

– هيا يا ابنتي .. فلتنامي قليلا .. هيا

استلقت على فراشها بينما جذب والدها الغطاء عليها ثم جلس إلى جوارها وأخرج منديله ومسح دموعها وهو يقول:

– اطمئني يا ابنتي .. اطمئني

عادت دموعها تسيل لتغرق وجنتيها من جديد وهي تقول:

– كيف أطمئن وابنتي ليست في حضني يا أبي؟ .. كيف؟

ربت على صدرها وهو يقول:

– ما ضاقت إلا وفرجت يا ابنتي

تمتمت من بين دموعها:

– يا رب

– تصبحين على خير يا ابنتي .. تصبحين على خير

– ليتني ما أصبح وما أرى خيرا .. ليتني أموت لأستريح من حياتي كلها

– سيكون كل شيء على ما يرام بإذن الله .. سأتركك لتستريحي قليلا

نهض من مكانه ثم خفف إضاءة الحجرة وخرج تاركا إياها غارقة في بحار أفكارها .. خيل إليها أنها ترى منار فأسرعت تنتصب من رقدتها .. كانت منار تقترب منها و تناديها:

– أمي!

تمتمت من بين دموعها:

– نعم يا حبيبتي

– لا تحزني يا أمي

قالت وهي تجفف بعضا من دموعها بإحدى راحتيها:

– كيف لا أحزن وأنت بعيدة عني يا حبيبتي؟

– ليس بيدي يا أمي

تهدج صوتها وهي تقول:

– وهل ..؟

– سأعود يا أمي .. سأعود بإذن الله

– متى؟ .. متى يا حبيبتي؟

– عندما يأذن الله يا أمي

– وماذا عن أبيك؟

– سيعود يا أمي

– حقا؟

– أبي لا يمكن أن يتخلى عنا يا أمي

– أما فعلها من قبل؟

– لقد فعلها من أجلي يا أمي .. لقد فعلها من أجلي

* * *

– من أنتم وماذا تريدون مني؟

– اهدأ مستر شناوي

قال عمرو في حدة:

– لن أهدأ قبل أن أعرف

– ماذا تريد أن تعرف بالضبط مستر شناوي؟

– لماذا اختطفتموننني؟

– إننا لم نختطفك مستر شناوي

– وماذا تسمي ما فعلتم إذن؟

– إنك ضيفنا مستر شناوي .. لقد أردنا الحديث معك فحسب

– الحديث فحسب؟

– مستر شناوي لدينا عرض محدد فلتستمع إليه وبعدها يمكنك أن تنصرف في هدوء

جلس الرجل إلى مقعد وثير وأشار إلى آخر مقابل وهو يستطرد:

– تفضل بالجلوس مستر شناوي .. تفضل

جلس عمرو وهو يقول في تململ:

– ها قد جلست

– جان هارولد من المخابرات الأمريكية

– وماذا تريد المخابرات الأمريكية مني بالضبط؟

– الجهاز مستر شناوي

رسم عمرو الدهشة على ملامحه وهو يقول:

– أي جهاز؟

ثم ما لبث أن استطرد قائلا:

– هل تقصد الشريحة؟

– الجهاز مستر شناوي

– لا أدري عما تتحدث بالضبط؟

– سندفع مليوني دولار مستر شناوي

ازدرد عمرو لعابه في صعوبة ولكنه تمالك نفسه سريعا وقال:

– إنني لا أفهم شيئا

– عشرة ملايين مستر شناوي بالإضافة إلى الجنسية الأمريكية .. لك ولجميع أفراد أسرتك بالطبع

أحس عمرو بدوار مفاجئ من أثر المفاجأة وتوقفت الكلمات في حلقه فأسرع مستر هارولد يستطرد:

– فلتأخذ وقتك في التفكير مستر شناوي قبل أن تبد رأيا قد تندم عليه

– ولكن ..

قاطعه قائلا:

– مستر شناوي الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة ولا تنسى أننا سنستضيفك في أمريكا وسنوفر لك الحماية اللازمة

– إنني لا أحتاج إلى حمايتكم .. إنني آمن في بلدي

– كنت مستر شناوي .. كنت آمنا قبل أن تفتح على نفسك أبواب جهنم

– ماذا تعني بالله عليك؟

– أتدري مستر شناوي كم من الدول تعلم بشأن جهازك هذا؟ أتدري كم من رجال المخابرات ينتظرون عودتك؟ .. هل تظنهم سيتعاملون معك كما نفعل؟

تردد عمرو قليلا ثم قال:

– جميعهم يحتاجون إلي جهازي

– لدى الجميع هدفين لا ثالث لهما مستر شناوي

– ما هما؟

– الأول هو الحصول على الجهاز بالطبع أما الثاني فهو..

قال عمرو في قلق:

– هو ماذا؟

– قتلك مستر شناوي .. قتلك بلا رحمة

ازدرد عمرو لعابه بصعوبة وهو يقول:

– لماذا؟ .. لماذا يقتلونني؟

– ليضمنوا أن جهازك لن يصل إلى جهة أخرى

قال عمرو في ارتباك:

– ولماذا لا تكون تلك هي أهدافكم أيضا؟

– مستحيل مستر شناوي .. مستحيل

– لماذا؟

– لأننا قوم شرفاء ندافع عن حقوق الإنسان مستر شناوي

– لعلك تقصد الإنسان الأمريكي .. إنه الوحيد الذي أعرف أن له حقوقا لديكم

– لاحظ أنك ستحصل على الجنسية مستر شناوي وتصبح أمريكيا مثلنا ثم أننا كما تعلم نقدر العلماء ونحافظ عليهم

– لعلك تقصد أنكم تحتفظون بهم لأنفسكم

– وما المانع مستر شناوي مادمنا نقدر جهودهم وندفع لهم ما يستحقون؟

– وماذا عن ابنتي؟

– ماذا عنها؟

– لماذا اختطفتموها؟

– ليس هذا أسلوبنا مستر شناوي

– من فعلها إذن؟

– لا ندري بالطبع ولكن ..

قال عمرو في لهفة:

– ولكن ماذا؟

– لو قبلت بعرضنا ستصبح واحدا منا وعندئذ يمكننا أن نجند كل إمكاناتنا في البحث عنها .. سنقلب الدنيا حتى نجدها .. سنجند العالم بكل إمكاناته للبحث عنها

– سأقبل بعرضكم ولكن بشرط

– ما هو مستر شناوي؟

– أن تعيدوا إلي ابنتي أولا

نهض مستر هارولد من مجلسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة واتجه نحو عمرو الذي نهض بدوره وشد على يده بقوة وهو يقول:

– اتفقنا مستر شناوي .. اتف..

قطع كلامه فجأة وهو يلتفت نحو الباب الذي انفتح فجأة وظهر خلفه رجلان يحمل كلا منهما مسدسا يصوبه نحوهما .. أغلق أحد الرجلين الباب واستقر بجانبه بينما تقدم الآخر نحوهم وهو يوجه كلامه إلى هارولد قائلا:

– فلتلق بمسدسك ولا تكن أحمقا كزميلك الذي يرقد في الجحيم

تردد هارولد قليلا ثم حسم أمره وألقى بمسدسه على الأرض وهو يقول:

– كيف دخلتم إلى هنا؟

لوح الرجل أمامه بمجموعة من المفاتيح وهو يقول:

– لقد كان زميلك كريما معنا .. لم يشأ أن يغادر الدنيا إلا بعد أن ترك لنا شيئا يذكرنا به

– من أنت بالضبط؟

– دانيال كاهان من الموساد

– وماذا تريدون؟

أرخى الرجل يده الممسكة بالمسدس وهو يقول:

– نريد ما تريد بالضبط مستر هارولد

– ولكن كيف أمكنكم اكتشاف منزلنا الآمن؟

– لكل طرقه الخاصة مستر هارولد

– ولكن هناك اتفاق بين دولتينا بشأن التعاون و..

قاطعه الرجل قائلا:

– يبدو أنك لا تعرفنا جيدا مستر هارولد .. إننا لا نقبل أن يشاركنا انتصاراتنا أحد

– ألا تحترمون الاتفاقات؟

– إلا ما فيه مصلحتنا بالطبع مستر هارولد

– ماذا تعني؟

صوب مسدسه نحوه وهو يقول:

– هذا ما أعني مستر هارولد .. هذا ما أعني بالضبط

وأطلق النار على رأسه بلا تردد ..

مطلقا

* * *

– مستحيل .. ما تطلبونه مستحيل

– ستنفذ شئت أم أبيت دكتور

– مستحيل

– تلك الكلمة ليست في قاموسنا

صرخ الدكتور زاهر قائلا:

– إنكم وحوش .. وحوش

– إننا نعمل لصالح الوطن دكتور

– على حساب طفلة بريئة؟

– إننا نخدم البشرية كلها

– أهكذا تبررون حقارتكم؟

– تصور كم من المرضى سيتم انتشالهم من ظلام رهيب دكتور

واصل صراخه قائلا:

– وماذا عن تلك المسكينة؟

– الغاية تبرر الوسيلة

– منطق حقير يتناسب مع حقير مثلك

– لقد نفذ صبرنا دكتور

– لن أجري تلك العملية أبدا

– ستجري العملية دكتور

– مستحيل

– لا تضطرنا للجوء إلى وسائل أخرى في التعامل معك دكتور

– مستحيل .. لن أجري عملية حقيرة كتلك .. مستحيل

– صدقني دكتور .. الفتاه لن تتأذى

– حذار أن تظنني غبيا .. إنني أكبر جراح للعيون في الشرق الأوسط وهذا لا يتأتي من فراغ

– لقد طلبنا منك انتزاع شريحة واحدة دكتور وسنترك لها الأخرى لترى بها وتستمتع بالحياة

– يا لنبل أخلاقكم! .. إنكم لكرماء حقا

– لاحظ أن والد الفتاه هو من ابتكر الشريحة ولا أظنه يضن عليها بأخرى جديدة

– لن يكون بإمكانه ذلك

– لماذا؟

– العصب المؤدي إلى المخ لن يحتمل

– ماذا تعني؟

– سيضمر العصب بسبب تعدد الجراحات مما سيؤدي إلى استحالة زرع شريحة أخرى فيما بعد

– لا تصعب الأمور دكتور

– إنني لا أصعب الأمور .. إنني أتكلم كلاما علميا بحتا

– كفاها عينا واحدة لترى بها إذن

– لا يمكن أن تكون آدميا

– سامحك الله دكتور

– ولا سامحكم أبدا

قال الرجل في هدوء مستفز:

– لماذا تكرهنا دكتور؟

– لأنني أعلم ما يدور في رؤوسكم

– وماذا يدور في رؤوسنا؟

– بعد أن أنتزع الشريحة ستقتلونني وتقتلون الفتاة

– ولماذا نقتلك؟

– حتى لا ينكشف أمركم

– ولماذا نقتل الفتاة؟

– حتى لا تصل الشريحة إلى جهة أخرى

– ولماذا لا نقتل الفتاه مباشرة وننتزع الشريحة من عينيها مادمنا ننوي ذلك منذ البداية؟

– ربما تعلمون أنني الوحيد القادر على انتزاع الشريحة والحفاظ عليها سليمة

قال في سخرية:

– يبدو أنك تكثر من مشاهدة الأفلام العربية الهابطة دكتور

– لماذا لا تقايضوا عمرو الشناوي بالفتاة في مقابل الشريحة ؟

– ألم يدلك ذكاؤك بما يمكننا أن نفعل إذا نفذ صبرنا دكتور

– فلتفعلوا ما تشاءون ولكنني لن أخالف ضميري

– إنني متأكد من أنك ستغير رأيك بمجرد أن نبدأ بنزع أظافرك

ارتعد جسده من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه إلا أنه ما لبث أن تمالك نفسه وقال في إصرار:

– مستحيل .. لن أمد يدي بالأذى على الفتاة

– سنرى دكتور .. سنرى

* * *

ألقى عمرو بنفسه على أريكة قريبة في انهيار وهو يهتف في مرارة:

– وحوش .. وحوش

– اهدأ أدون شناوي .. اهدأ

نظر عمرو في امتعاض إلى جثة هارولد التي غرقت في دمائها ثم رفع رأسه نحو الرجل وصرخ به قائلا:

– أليس في قلوبكم ذرة من رحمة؟

– إننا نؤدي عملنا أدون شناوي

صاح مستنكرا:

– عملكم أن تقتلوا الناس بلا ذنب؟

– ليس بلا ذنب أدون شناوي .. لقد اقترف ذنبا لا يغتفر

– أي ذنب ذاك؟

– لقد وقف كحجر عثرة أمام مصلحة إسرائيل

نهض من مجلسه وهو يواصل صراخه:

– أي منطق هذا؟

– إنه منطق الأقوياء

– بل هو منطق الجبناء

كظم الرجل غيظه وحاول أن يكون هادئا قدر الإمكان وهو يقول:

– سامحك الله أدون شناوي .. سامحك الله

– إنكم لا تعرفون الله

– تأكد أدون شناوي أنه لو تبدلت الأدوار لما تردد في قتلنا

– هراء

– لقد اختطفوك وأتوا بك إلى هنا عنوة؟ .. لقد كنا نرقب كل شيء

– إنني لم أطلب حمايتكم

ابتسم في خبث وهو يقول:

– يبدو أن عروض الأمريكان قد أدارت رأسك أدون شناوي

تلعثم عمرو وهو يقول:

– إنني أتحدث عن شيء آخر

– عموما فعرضنا قد يكون أفضل أدون شناوي

صرخ به في غضب:

– تبا لكم ولعروضكم

– يبدو أنك تتخذ موقفا عدائيا مسبقا ضدنا أدون شناوي

– لا تنسى أننا أعداء

– كنا أدون شناوي .. كنا أعداء

– كنا وسنظل إلى الأبد ما دمتم لا تحترمون حقوق الآخرين

– قد تغير رأيك حين تسمع عرضنا أدون شناوي

– لن أغير رأيي ولو عرضتم علي كل أموال الدنيا

– ما نعرضه عليك لا يقدر بمال أدون شناوي

– ستدمرون الدنيا بأكملها لو وقع جهاز كهذا بين أيديكم

– بل سننصر الضعيف ونعيد الحق إلى أصحابه أدون شناوي

قال عمرو ساخرا:

– تقصد حق الشعب الفلسطيني في وطنه؟

قال الرجل في خبث:

– بل أقصد حق إسرائيل في الوجود أدون شناوي

– لن نتفق أبدا

– بل سنتفق أدون شناوي

– مستحيل

– اتحدي أدون شناوي فعروضنا لا يمكن رفضها

– عروضكم مرفوضة مسبقا

– حتى لو عرضنا عليك ..

وصمت لبرهة من الوقت ثم استطرد قائلا:

– حياة ابنتك

أحس عمرو بقلبه يسقط بين قدميه وظهر على وجهه كل غضب الدنيا فأسرع يهجم على الرجل ويضغط على رقبته بكل ما يملك من قوة وهو يصرخ في هستيرية:

– أوغاد .. وحوش

اقترب الرجل الآخر الذي يرافقه في سرعة نحو عمرو من الخلف وضربه بكعب مسدسه على رأسه بقوة مما جعله يفلت رقبة كاهان ويسقط على الأرض فاقدا للوعي بينما تنزف رأسه في غزارة .. احتقن وجه كاهان وراح يسعل في شدة .. أسرع الرجل يحضر كوبا من الماء سلمه إليه وهو يقول:

– تفضل أدون كاهان .. تفضل

جرع كاهان بعضا من الماء مما أزال احتقان وجهه وهدأ من حدة سعاله وأعاد الكوب إلى الرجل الذي وضعه على منضدة قريبه وهو يقول:

– حمدا لله على سلامتك أدون كاهان

نظر كاهان إلى عمرو الملقى أرضا ثم رفع رأسه نحو رفيقه وهو يقول في غضب:

– ماذا فعلت أيها الغبي؟

ألقى الرجل نظرة سريعة على عمرو وهو يقول في دهشة:

– لقد كاد أن يقتلك أدون كاهان

صرخ به قائلا:

– حتى لو فعلها أيها الغبي ما كان يجب أن تتصرف هكذا

نظر إليه الرجل في حيرة وهو يقول:

– هل كنت أتركه ليقتلك أدون كاهان؟

–ألا تدرك قيمة الرجل أيها الغبي

– إنه في النهاية مصري حقير

– اخرس أيها الغبي .. ولتحضر شيئا لتضمد جرحه وتوقف النزيف .. هيا

كظم الرجل غيظه وراح ينفذ الأمر ..

بمنتهى السرعة

* * *

ربت الدكتور زاهر في حنان على ظهر الصغيرة منار التي تقف أمامه بينما يجلس إلى أريكة في مواجهتها وهو يقول:

– اهدئي يا ابنتي

قالت الصغيرة من بين دموعها المنهمرة:

– لماذا يريدون أن يؤذوننا يا عمي؟

– لن يؤذيك أحد ما دمت حيا يا صغيرتي

– لماذا يحبسوننا إذن؟

– اطمئني يا ابنتي سيتركوننا

– متى يا عمي؟ .. متى؟

– قريبا يا حبيبتي .. قريبا بإذن الله

– وهل سأرى أبي وأمي؟

– سترينهم يا صغيرتي

– لقد افتقدتهما كثيرا يا عمي

– مؤكد أنهما افتقداك أكثر يا ابنتي

– إنني خائفة يا عمي

حملها بين زراعيه ونهض بها ثم ضمها إلى صدره في قوة وهو يقول:

– لا تخافي يا ابنتي ..

سمع أحدهم يصفق بكلتا راحتيه وهو يقول ساخرا:

– يا له من موقف مؤثر! .. يا لمشاعر الأبوة الرقيقة! .. لقد دمعت عيناي

التصقت منار بالدكتور زاهر في خوف فربت على ظهرها وهو يقول:

– اطمئني يا ابنتي .. اطمئني

ثم انحنى يضعها على أريكة خلفه وهو يقول:

– اجلسي هنا يا صغيرتي

جلست الصغيرة وهي تمسك بإحدى يديه ولا تفلتها .. سمع الرجل يقول:

– يبدو أن عاطفة الأبوة قوية لديك دكتور

التفت نحوه وهو يقول:

– كما يبدو أنه لا عواطف لديك على الإطلاق

– ألديك ابنة في مثل عمرها دكتور؟

قال في تردد:

– لا .. نعم .. لا

– أظن اسمها منى؟

تصاعد القلق في أعماق الدكتور زاهر ولكنه لم ينطق ببنت شفة فتابع الرجل قائلا:

– عموما فقد أحضرها رجالنا علها تساعدك في اتخاذ القرار

– أوغاد

– يجب أن تشكرنا دكتور

صرخ به قائلا:

– مهما فعلتم فلن أنفذ ما تريدون

– أظن أن رأيك قد يتغير حين ترى منى

وغادر المكان وما لبث أن عاد وهو يجذب فتاة في الخامسة من عمرها تقريبا ودفع بها نحوه في قسوة .. أحس الدكتور زاهر بقلبه ينفطر وهو يرى ابنته وقد سقطت على الأرض وهي تبكي في مرارة ..

أفلت يد منار وأسرع يحمل ابنته ويضمها إلى صدره في قوة ويربت على ظهرها في حنان وهو يقول:

– اهدئي يا حبيبتي .. إنني أبوك حبيبك

راحت الصغيرة تحتضن أباها في قوة وقد نسيت كل ما حولها وهي تقول:

– أبي حبيبي .. لقد افتقدتك كثيرا يا أبي

سمع الرجل يقول:

– يبدو أنك قد اخترت دكتور

انتبه الدكتور زاهر إلى تخليه عن منار فأسرع نحوها ثم أنزل ابنته أمامها وجثا على ركبتيه في مواجهتها وهو يقول:

– منار حبيبتي .. لقد أحضرت لك منى .. إنني واثق من أنك ستحبينها وستلعبين معها

ثم ربت على ظهري الفتاتين براحتيه ودفعهما في رفق ولم تمض ثوان حتى كانتا تلعبان سويا وقد نسيتا كل ما حولهما وهو يرقبهما في حنان بالغ

– لقد نفذ صبرنا دكتور

نهض الدكتور زاهر على قدميه والتفت إلى الرجل في غضب وهو يقول:

– لن أجري تلك العملية الحقيرة .. مستحيل

– لا تتسرع دكتور .. فحياة ابنتك على المحك

– هل قدت قلوبكم من حجر

– لقد تحملناك كثيرا دكتور ولن نسمح لك بإهانتنا لاحقا .. فلتأخذ وقتك في التفكير وتأكد أننا لن نجادلك مهما كان القرار

وانصرف الرجل تاركا إياه أمام أصعب اختيار ..

أصعب اختيار مر به في حياته ..

كلها

* * *

دلف الأستاذ حامد إلى شقته وأغلق بابها خلفه وما أن أضاء المكان حتى فوجئ بابنته تجلس على أريكة في الردهة .. خطا نحوها في هدوء وهو يناديها:

– ريهام

انتفض جسدها وكأنها تستيقظ من نوم عميق ثم رفعت عينيها نحوه وهي تقول:

– أبي؟

– لماذا تجلسين في الظلام يا ابنتي؟

– لم أعد أرى إلا ظلاما يا أبي

جلس إلى جوارها وهو يقول:

– لقد تغيرت كثيرا يا ابنتي

قالت بصوت خافت حزين:

– وماذا لم يتغير في حياتنا يا أبي؟

– لم تعودي ريهام التي أعرفها

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول:

– لم أعد أرغب في الحياة يا أبي .. ليتني أموت

ربت على أحد كتفيها وهو يقول:

– الحياة تستحق أن نعيشها رغم ما بها من مآس يا ابنتي

سالت دموعها وهي تقول:

– لم أجن منها سوى العذاب يا أبي

ربت على ظهرها في حنان وهو يقول:

– سيعوضك الله خيرا يا ابنتي

قالت من بين دموعها المنهمرة:

– لم أعد أحتمل يا أبي .. لم أعد أحتمل

– لا تيأسي من رحمة الله يا ابنتي

– لماذا نحن بالذات يا أبي؟

– إننا أفضل من كثيرين يا ابنتي

– ماذا فعلت حتى أجني كل هذا العذاب؟

ضمها إلى صدره وهو يقول:

– الحياة معاناة يا ابنتي

– ولماذا نعيشها إذن؟

– من يصبر يصل إلى بر الأمان يا ابنتي ولو لم نذق طعم الألم لما شعرنا بطعم السعادة

– لا أذكر يوما أنني كنت سعيدة

– اصبري يا ابنتي

– إلى متى؟

– فرج الله قريب يا ابنتي

وربت على أحد كتفيها وهو يستطرد قائلا:

– أين ريهام الشجاعة التي تقف أمام المشاكل صامدة تواجه الصعاب غير عابئة بها؟

– ريهام انتهت يا أبي

– لقد كنت أستمد شجاعتي من شجاعتك يا ابنتي

– لم تعد لدي من شجاعة يا أبي

– فلتتقوي بإيمانك يا ابنتي

– ونعم بالله يا أبي

– إنني واثق أن عمرو سيعود ومعه منار

– متى .. بعد خمس سنوات أخرى من العذاب يا أبي؟

– لماذا التشاؤم يا ابنتي؟

– وماذا يدعو للتفاؤل يا أبي؟ .. ماذا يدعو للتفاؤل؟

* * *

– ماذا تقول أيها الغبي؟

– إنهم يحاصرون المبنى أدون كاهان

أسرع كاهان نحو النافذة ونظر عبرها فرأى مجموعة من السيارات وقد توقفت إلى جانب الطريق وهبط منها عدد كبير من الرجال في سرعة يحملون مدافع رشاشة وراحوا يحاصرون المبنى من كل اتجاه بينما اقتحم بعضهم المبنى وراحوا يصعدون السلم بسرعة بالغة فقال بلهجة آمرة:

– هيا أيها الغبي

أشار الرجل إلى عمرو الفاقد الوعي وهو يقول:

– وماذا عنه؟

– سنأخذه معنا بالطبع

أسرع الرجل يحمله على كتفيه

– هيا أيها الغبي .. لو وصلوا إلينا فلن يمكننا الفرار أبدا

وأسرع يفتح الباب وما أن فعل حتى فوجئ بالرجال يعدون نحوهما عبر السلم فتراجع إلى الخلف دافعا رفيقه الذي يحمل عمرو ليعيده إلى الداخل ثانية ثم أغلق الباب خلفه في إحكام .. صوب الرائد حسام الجبالي مسدسه نحو الباب وهو يقول في صرامة:

– سلم نفسك يا كاهان .. المكان محاصر

رفع كاهان صوته قائلا:

– لو هاجمتمونا سنقتل الشناوي على الفور

قرب الرائد حسام الجبالي جهاز اللاسلكي من فمه وهو يقول:

– حسام الجبالي معك يافندم .. انتهى

– معك .. انتهى

– إنهم يهددون بقتل الشناوي إذا تم الاقتحام .. انتهى

– يجب المحافظة على حياة الشناوي مهما كان الثمن .. لا تقتحموا المكان .. سلامة الشناوي فوق كل اعتبار .. انتهى

– علم وينفذ يافندم

وفي الداخل ألقى الرجل بعمرو الفاقد الوعي على الأريكة بينما ألتقط كاهان جهاز اللاسلكي المعلق في حزام سرواله وقربه من فمه وهو يقول:

– أسد ينادي .. انتهى

– صقر معك .. انتهى

– نفذ الخطة دلتا .. الثعالب تحيط بنا من كل اتجاه .. انتهى

ولم تمض دقائق حتى كانت إحدى طائرات الهليوكوبتر تحوم حول المبنى وما أن سمع الرائد كمال الجبالي هدير الطائرة حتى قرب جهاز اللاسلكي من فمه وهو يقول:

– الرائد حسام الجبالي .. انتهى

– معك .. انتهى

– هناك هليوكوبتر ظهرت في موقع العمليات تحاول تهريبهم على ما يبدو.. انتهى

– والمطلوب .. انتهى

– أحتاج إلى مقاتلة حربية فورا .. انتهى

– ولكن ذلك يحتاج إلى بعض التصاريح .. انتهى

– لا وقت لدينا على الإطلاق .. انتهى

– الأمر صعب للغاية .. انتهى

– ابلغوا قوات الدفاع الجوي إذن لتحدد وجهة الطائرة عبر الرادار.. انتهى

تدلى سلم من الحبال من الطائرة في محاذاة المبنى فأسرع كاهان نحو النافذة وأمسك بالسلم وتعلق به و تبعه رفيقه ولم تلبث الطائرة أن ارتفعت بهما وهما يحاولان بلوغ متنها عبر السلم بينما يمطرهم الرجال برصاصاتهم

دون جدوى ولم تمض ثوان حتى غادرت الهليوكوبتر المنطقة بأكملها وغابت عن الأنظار مخلفة وراءها رجالا ..
ملأت المرارة حلوقهم

* * *

هبط الأستاذ حامد من سيارة أجرة توقفت به أمام المبنى الذي يقطنه وهو يمسك بلفافة بين يديه ونقد السائق أجرته ثم توجه نحو المبنى واتجه نحو السلم بينما عقله شارد تماما حتى أنه لم ينتبه إلى جاره الذي رفع يده إليه بالتحية .. واصل صعوده عبر السلم دون أن يرد تحيته أو حتى يلتفت نحوه .. توقف أمام شقته وفتح بابها بينما يغمغم:
– ها قد أحضرت لها هدية ستخرجها من حالة الحزن التي تمر بها
ودلف إلى الداخل وأغلق الباب خلفه ثم رفع صوته ينادي:
– ريهام .. حبيبتي
لم يجبه سوى الصمت فتمتم في قلق:
– ترى أين ذهبت؟
اتجه نحو المطبخ يبحث عنها .. لم يجد لها أثرا .. تصاعد قلقه فراح يبحث عنها في كل مكان .. وصل قلقه إلى الذروة .. أيمكن أن تكون نائمة؟ .. ولما لا؟ .. الأقراص التي وصفها لها الطبيب تجعلها تنام لفترات طويلة .. راح يحث الخطى نحو غرفة نومها وما أن فتح بابها حتى تنهد في ارتياح
– الحمد لله

كانت ترقد أمامه على فراشها .. هم أن يغلق باب الغرفة ويعود أدراجه إلى الردهة إلا أن فكرة طرأت على رأسه فجأة .. لماذا لا يترك هديته لها على فراشها حتى إذا ما استيقظت تكون مفاجأة لها؟ .. تردد قليلا إلا أنه قرر أن ينفذ فكرته في النهاية .. اقترب من فراشها في هدوء حتى لا يوقظها ووضع اللفافة إلى جوارها وهم أن يبتعد إلا أن قطعة من الورق على الفراش لفتت انتباهه بشدة وجعلته يحملق بها وقد ملأ القلق كيانه .. انحنى يلتقط الورقة وأسرع يشعل أضواء الحجرة وراح يقرأ ما بها ..

" أبي العزيز

سامحني .. لم يعد هناك ما أعيش من أجله .. أصبح كل شيء كئيبا في عيني .. لم يعد في الدنيا ما يستحق بعد أن ضاع مني كل شيء .. لقد أنهيت حياتي بيدي .. أنهيت عذابي .. أنهيت معاناتي .. إنني واثقة أن الله سيسامحني .. سيتفهم معاناتي .. إنه أكثر من علم بي وبعذابي .. أرجوك سامحني ولتحاول أن تنساني .. أستحلفك بالله ألا تحاول إنقاذ حياتي .. إنني واثقة من أنك تحبني ولا تريد لي حياة ملؤها العذاب والألم

ريهام "

تفجرت ينابيع الدموع من عينيه وهو يصرخ في لوعة .. صرخ كما لم يصرخ من قبل .. صرخ بكل ما يملك من قوة:

– لا يا ابنتي .. مستحيل

ثم اقترب منها وراح يهزها وهو يصرخ من بين دموعه:

– لا يا ابنتي .. لا تتركيني أرجوك .. لماذا فعلت ذلك؟ .. لماذا؟ .. إنني أعيش فقط من أجلك .. عودي إلي أرجوك .. عودي أرجوك

وقعت عيناه على عبوة الأقراص المنومة فارغة فأمسك بها وألقى بها بعيدا وهو يواصل نحيبه وصراخه:

– لماذا تتركينني وحيدا في تلك الدنيا الكئيبة؟ .. لماذا؟ .. لابد وأن أفعل شيئا .. لابد .. لن أتركك لتضيعي منى .. مستحيل .. لن أستطيع العيش من دونك .. لن أستطيع أبدا

* * *

فتح عمرو عينيه بصعوبة .. وجد نفسه يرقد على فراش أبيض نظيف .. دار ببصره في أرجاء الغرفة وما أن رأى أحدهم يجلس إلى مقعد بجواره حتى بادره قائلا:

– أين أنا؟

أحس بقلبه يرقص فرحا حين سمع الرجل يقول بلهجة مصرية خالصة:

– اطمئن يا عمرو.. أنت في أمان

– من أنت؟

– المقدم شريف زيدان من المخابرات المصرية

حاول أن يتذكر ما حدث دون جدوى فقال في حيرة:

– ولكن كيف؟ .. كيف وصلت إلى هنا؟ .. آخر ما أذكره هو أنني كنت مع ضابط مخابرات إسرائيلي وكان ..

– لقد كنا نراقب كل شيء منذ البداية

– هل تعني أنكم قد تمكنتم من القبض عليهم؟

– للأسف فقد تمكنوا من الهرب

تذكر ابنته فجأة فتغيرت ملامحه وانتصب جالسا على فراشه وهو يقول:

– ولكن ابنتي .. ابنتي لديهم .. إنهم يحتجزونها وقد يفكرون في قتلها

– اطمئن يا عمرو.. ابنتك هي الورقة الرابحة الوحيدة لديهم الآن ولن يؤذونها طالما يحتاجون إليك

– هل عرفتم مكانها؟

– إننا نعرف مكانها منذ البداية يا عمرو

قال عمرو في استنكار:

– وتتركونها في أيديهم؟

– ليس بأيدينا يا عمرو

– بأيدي من إذن؟

– لابد وأن تتفهم موقفنا

قال في عصبية:

– ماذا أتفهم بالضبط؟ .. فتاة شقية تعيسة لم تذق طعم السعادة يوما تسقط في مأزق ولا تمدون لها يد العون .. أهذا ما تريدني أن أتفهمه؟

– لابد وأن تفهم الوضع يا عمرو

قال عمرو في تهكم واضح:

– تفضل .. كلي آذان صاغية .. لدينا الكثير من الوقت لنضيعه بينما تنتظر تلك المسكينة الموت على أيدي هؤلاء السفاحين

– إننا نبذل قصارى جهدنا

– أهذا هو قصارى جهدكم؟ .. أن تجلسوا معي لنتسامر سويا؟

– اهدأ يا عمرو.. اهدأ أرجوك

قال في عصبية:

– إنني هادئ .. هادئ تماما

– إنها في السفارة الإسرائيلية يا عمرو

– هل يحتجزوها داخل السفارة؟

– ويحتجزون الدكتور زاهر أيضا بل وتقارير الدفاع الجوي تؤكد أن من كانوا يحتجزونك هربوا بهليوكوبتر هبطت فوق مبنى السفارة الإسرائيلية أيضا وهذا ما جعلنا نقف مكتوفي الأيدي

– ولماذا لا تهدموا السفارة على رؤوسهم؟

– الأمر ليس بالبساطة التي تتصورها يا عمرو

– هل سأترك ابنتي في أيديهم فقط لأنها داخل سفارتهم؟

ثم أزاح الغطاء عن جسده ونهض عن الفراش وهو يقول:

– سأنقذها بنفسي مادمتم عاجزون

– فلتعد إلى فراشك يا عمرو فمازلت مرهقا

قال مستنكرا:

– أعود إلى فراشي بينما تعاني ابنتي بين أيديهم؟

– اطمئن يا عمرو إننا نراقب السفارة ليل نهار وننتظر أن يخرجوا بها

– وماذا لو لم يفعلوا؟

– هل سيحتجزونها إلى الأبد؟
– ولماذا لا تهاجمون السفارة؟
– هل جننت؟
– لأنني أريد ابنتي؟
– السفارة تعتبر أرض إسرائيلية ومهاجمتها يعني إعلانا للحرب
– فلنحاربهم ماداموا يختطفون أبناءنا
– الحرب ليست بالبساطة التي تتصورها يا عمرو .. الحرب تعني الآلاف من القتلى والجرحى .. تعني أطفال تتيتم ونساء تترمل و..
قاطعه قائلا في عصبية:
– هل ستضحون بابنتي لتعيشوا في سلام؟
– ابنتك ابنتنا يا عمرو وسنستعيدها
– متى؟
– أقرب مما تتصور
– بعد أي قدر من المعاناة؟
– أعدك ألا نتركها لتعاني
– ألم يطرأ على رؤوسكم أنهم قد ينتزعون شرائح السيلكون من عينيها؟
– ما الذي دفعك إلى التفكير بهذا؟
– احتجازهم للدكتور زاهر
– وما حاجتهم إليه؟ .. أي طبيب يمكنه أن يفعل
– انه الوحيد القادر على انتزاعها

– كيف؟

– لقد طرأ على ذهني أن يحاول أحدهم انتزاع شرائح السليكون من عيني ابنتي ليعرف سر تركيبها لذا فقد زودتها ببرنامج يدمر دائرتها الإليكترونية ذاتيا إذا ما حاول أحدهم انتزاعها وكنا سنعلن عن ذلك في المؤتمر حفاظا على حياة ابنتي ولكن القدر لم يمهلنا

– أليس هذا ما سيحدث بالضبط إذا ما حاول الدكتور زاهر انتزاعها؟

– الدكتور زاهر هو الوحيد القادر على انتزاعها دون أن تدمر ذاتها

– لماذا؟

– بصمات الدكتور زاهر هي الشفرة التي توقف برنامج التدمير الذاتي

– ولماذا استثنيت الدكتور زاهر؟

– لم أكن واثقا من نجاح العملية وخشيت أن يضطر للتدخل مرة أخرى للتعديل

– وكيف علم الإسرائيليون بذلك؟

– يبدو أنهم كانوا يتنصتون علينا

– الأوغاد .. هذا ما يفسر اختطافهم للدكتور زاهر

– وهذا يعني أن ابنتي في خطر

– هل تظن أن الدكتور زاهر قد يفعلها؟

– أقسم أن أقتله لو فعلها

– فلنؤجل هذا الموضوع إلى ما بعد مقابلتك للرئيس

– الرئيس؟

– نعم .. الرئيس يريدك في مكتبه بأسرع ما يمكن

– آسف

قال في دهشة:

– هل ترفض مقابلة الرئيس؟

– مع احترامي لسيادة الرئيس لن أستطيع مقابلته قبل أن تعود ابنتي .. لن أستطيع مطلقا

* * *

– هيا دكتور

– هل حانت اللحظة؟

– لقد أعددنا لك غرفة عمليات مجهزة على أعلى مستوى

– ولكن ..

– لا تتردد دكتور .. تأكد أنك اخترت أفضل الحلول

أطرق الدكتور زاهر بوجهه نحو الأرض وهو يقول في حزن:

– لن أسامح نفسي أبدا

– لقد أنقذت الفتاتين باختيارك هذا

– لقد أصبحت أحقركم جميعا باختياري هذا

– أي في مكانك كان ليختار ما اخترت

– الخسيس يرى كل من في الدنيا خسيسا

– كفى إهانة دكتور .. لا تنسى أننا نعاملك بمنتهى الاحترام حتى الآن

– ليتكم قتلتموني وما أرغمتموني على ذلك

– إننا لم نرغمك دكتور .. لقد اخترت بنفسك

– وهل كنت أترككم لتقتلوا ابنتي الوحيدة أمام عيني؟

– إذن فالصواب ما اخترت

– ولكنني لن أحترم ذاتي بعد اليوم

– يمكنك التراجع دكتور وسنرسل الفتاتين إلى إسرائيل وهناك سنفعل بهما ما نشاء

– أوغاد

– هيا دكتور ودعك من ضميرك الذي سيضيع منك ابنتك

نهض الدكتور زاهر عن أريكة كان يجلس عليها ولكنه ما لبث أن عاود السقوط عليها ثانية فأسرع الرجل يسانده ويساعده على النهوض وهو يقول:

– تشجع دكتور .. ما أن تنتهي العملية حتى نتركك لتعود إلى حياتك الهادئة ومعك الفتاتين

خطا الدكتور زاهر خطوات بطيئة .. أحس بأن قدماه لا تقويان على حمله بدا كما لو أنه يتعلم المشي من جديد .. كاد أن يسقط ثانية ..

– ماذا بك يا رجل؟ .. يبدو لي وكأنك ذاهب إلى غرفة الإعدام

– ذاك أهون على

– تماسك يا رجل .. كيف ستجري عملية وأنت على تلك الحال؟

– ألا يمكننا تأجيلها للغد؟

– مستحيل فقد أعددنا كل شيء

– ولكن يداي ترتعشان

– سأحضر لك كأسا من الشمبانيا وستصبح على ما يرام

– أتريدني أن أجري جراحة وأنا مخمور؟

– كأس واحدة ستجعل أعصابك كالحديد

– مستحيل .. لن أغضب الله بمعاقرة الخمر أبدا

– هيا إذن ولا تضع وقتنا هباءا .. هيا

ظل الرجل يسانده حتى وصل به إلى حجرة العمليات وساعده في ارتداء معطف العمليات ثم ارتدى معطفا بدوره

– ماذا تفعل؟

– سأدخل معك في العملية

– مستحيل

– لماذا؟

– وجودك سيزيد من توتري

– ولكنك لست في حالة جيدة وقد تحتاج إلى بعض المساعدة و..

– لقد أصبحت في خير حال

– كما تريد دكتور .. كما تريد

دلف الدكتور زاهر إلى الحجرة بينما جلس الرجل ينتظره خارجها .. مر الوقت بطيئا ولكنه مر على أي حال .. انقضت ساعتين قبل أن ينفتح باب الغرفة ويظهر خلفه الدكتور زاهر بينما كانت منار ترقد مخدرة تماما لا تشعر بما حولها وقد عصبت عيناها بشاش أبيض كثيف حجب وجهها تماما .. أسرع الرجل نحو الدكتور زاهر وهو يقول في لهفة:

– كيف الحال دكتور؟

– لقد تمت العملية بنجاح

– وأين الشريحة؟

مد إحدى راحتيه نحوه ثم بسطها كاشفا عن شريحة دقيقة من السيلكون وقد لوثتها الدماء ما أن رآها الرجل حتى تألقت عيناه وأسرع يختطفها منه ويتفحصها وهو يقول:

– أشكرك دكتور .. لقد أديت خدمة جليلة لدولة إسرائيل

ثم استطرد في تهكم:

– ربما نفكر يوما في منحك الجنسية الإسرائيلية

قال الدكتور زاهر في برود:

– إنني لا أريدها

ابتسم الرجل وهو يقول ساخرا:

– عموما دكتور حيث ستذهب لن تحتاج إلى جنسية

قال الدكتور زاهر في قلق:

– ألن تدعوني أذهب كما وعدتم؟

– بالطبع سندعك دكتور ولكنك ستذهب إلى مكان آخر ..

وبرقت عيناه في شراسة وهو يستطرد قائلا:

– إلى الجحيم دكتور .. إلى الجحيم

ورددت جدران المبنى أصداء ضحكات ..

ضحكات شيطان

* * *

– إنني أقدر موقفه وما يشعر به من ألم

اتسعت عينا مدير المخابرات وهو يقول في دهشة:

– سيادة الرئيس لقد توقعت ردة فعل مختلفة تماما

– إنه محق تماما .. لقد قصرنا في واجبنا حياله .. كنا نفكر في الجهاز طوال الوقت دون أن نلتفت إلى مشاعره وحياته

– وماذا بأيدينا ولم نفعل يا سيادة الرئيس؟

– بأيدينا الكثير .. لابد وأن نعيد إليه ابنته مهما كان الثمن

– مستحيل يا سيادة الرئيس

– لماذا؟

– إنها داخل السفارة يا سيادة الرئيس

– إذن فلابد أن نواجه الأسد داخل عرينه وننتزع فريسته من بين مخالبه

اتسعت عينا مدير المخابرات في ارتياع وهو يقول:

– هل تريدنا أن نهاجم السفارة الإسرائيلية يا سيادة الرئيس؟

– ولم لا؟

– هل سنعلنها حربا من أجل فتاة؟

– لن تصل الأمور إلى هذا الحد

– كيف يا سيادة الرئيس؟ .. مجرد هجومنا على السفارة يعني إعلانا للحرب

– هذا إذا كنا نحن من سيهاجم السفارة

– من سيهاجمها إذن؟

– مجموعة من الإرهابيين

اتسعت عيناه في دهشة وهو يقول:

– مجموعة من الإرهابيين؟

– نعم

– هل تعني أننا سنجند مجموعة من الإرهابيين ليعملوا لحسابنا؟

– ليس بالضبط

– كيف إذن؟

تجنيد مجموعة من الإرهابيين وإقناعهم بالعمل لحسابنا سيحتاج إلى الكثير من الوقت

– بالضبط كما أننا لن نضمن ولائهم ولو فشلت العملية سيدلون باعترافات تفصيلية تديننا وبذا نكون أمام فضيحة سياسية وموقف لا نحسد عليه أمام المجتمع الدولي بأكمله

– إذن فما نحتاج إليه هو مجموعة من الإرهابيين ولاءهم الأول والأخير لمصر

– بالضبط يا سيادة الرئيس

– إذن فليقم رجالك بالمهمة كمجموعة من الإرهابيين وليعلموا منذ البداية أننا سنتنصل من معرفتهم إذا فشلت العملية

– ولكن ذلك سيظهرنا بمظهر العاجز عن حماية السفارة على أرضنا يا سيادة الرئيس

– لابد وأن يبدو الأمر إذن وكأن شيئا لم يكن حتى يمكننا التنصل من الأمر برمته

– كيف يا سيادة الرئيس؟

– يمكننا استخدام طلقات مخدرة حتى لا تقع إصابات

– رائع يا سيادة الرئيس .. لا ينقصنا سوى شيء واحد

– ما هو؟

– خطة للطوارئ حتى يمكننا إنقاذ الجميع إذا ما فشلت العملية

– بالضبط

– ما رأيك في تزويد قائد المجموعة بحزام يشبه الحزام الناسف يرسل إنذارا إلى مدير الأمن للتدخل إذا تأزم الأمر؟

– رائع

– بقي موعد التنفيذ يا سيادة الرئيس

– الليلة

– على بركة الله

* * *

– لقد فعلها رجالنا يا عمرو

أحس عمرو بقلبه يرقص في سعادة وهو يقول:

– هل .. هل تعني أن منار معهم الآن؟

قال المقدم شريف في حماس:

– بقي تنفيذ الجزء الأخير من الخطة وتهريبها من مديرية الأمن

– ولم لا تسلمها مديرية الأمن إليكم مباشرة ؟
– لابد أن يتم كل شيء بدقة وحسب خطة مدروسة لإبعاد الشبهات عنا
– إنني .. إنني لا أكاد أصدق
– بل صدق يا عمرو .. الرئيس شخصيا مهتم بالأمر .. لقد أصدر أوامره بأن تكون ابنتك في حضنك الليلة
لم يستطع منع دموعه وهو يقول:
– أبلغ سيادة الرئيس شكري وامتناني
– فلتبلغه بنفسك يا عمرو .. أنسيت موعدك مع سيادته بعد عودة ابنتك؟
– إنني متشوق للقائه لأشكره بنفسي
مرت ساعة كاملة قبل أن يرتفع رنين جرس الهاتف .. رفع المقدم شريف السماعة وقربها من أحد أذنيه وهو يقول:
– ألو..
استمع إلى محدثه لثوان ثم قال:
– فلتدخلهم على الفور
وأعاد السماعة إلى موضعها ولم تمض ثوان حتى انفتح باب الحجرة وظهر من خلفه الدكتور زاهر وهو يمسك منار بإحدى يديه وابنته منى بالأخرى .. وسقط قلب عمرو بين قدميه .. لم يرى من ابنته سوى عينيها المعصوبتين .. تفجرت ينابيع الدموع دفعة واحدة من عينيه وهجم على الدكتور زاهر وراح يمسك برقبته ويضغطها بكل قوته وهو يصرخ في هستيرية:
– نذل .. جبان .. حقير .. فعلتها أيها الحقير؟

أسرع المقدم شريف نحوهما وخلص رقبة الدكتور زاهر من بين يدي عمرو في صعوبة بالغة وراح يحاول تهدئته بلا جدوى .. كان يصرخ في هستيرية:

– لقد أقسمت أن أقتل ذلك الحقير

راح الدكتور زاهر يسعل في شدة بينما تبكي ابنته منى وتصرخ:

– أبي .. ماذا حدث يا أبي؟

ما أن هدأ عمرو قليلا حتى أسرع نحو منار التي كانت تتحسس طريقها نحوه بكلتا يديها وهي تهتف:

– أبي .. أين أنت يا أبي؟

انحنى يلتقطها بين ذراعيه وراح يضمها إلى صدره في قوة وهو يقول بينما تواصل دموعه انهمارها:

– منار حبيبتي .. هل أنت بخير يا حبيبتي؟

– الحمد لله يا أبي

– سامحيني يا ابنتي .. كل ما تعانين بسببي

– اطمئن يا أبي .. إنني بخير

صرخ بالدكتور زاهر قائلا:

– أيها الوغد الجبان كيف طاوعك ضميرك أن تمد يدك بمشرط على فتاة بريئة لتنتزع منها بصرها؟ .. أهذا ما أقسمت عليه؟

هدأت حدة السعال لدى الدكتور زاهر وراح يربت على ظهر ابنته منى وما أن توقفت عن البكاء حتى نظر إلى عمرو وهو يقول:

– اهدأ يا عمرو؟ .. إنني لم أفعل شيئا

نظر عمرو نحو الرباط الذي يغطي وجه ابنته وهو يقول:

– ماذا كنت تريد أن تفعل أكثر مما فعلت أيها الحقير؟

– صدقني يا عمرو .. لقد فتحت موضع العملية ثم أعدت إغلاقه فحسب

– هل تعني أنك لم تنتزع الشريحتين من عينيها؟

– أقسم لك أنني لم أفعل

– أمازالت ترى؟

– بلى .. لقد اضطررت إلى فتح موضع العملية لأنهم هددوني بإرسال الفتاتين إلى تل أبيب إذا لم انتزع إحدى الشريحتين

– هل تعني أنك قد تمكنت من خداعهم؟

– بالضبط

– ولماذا لم تحاول دون أن تضطر إلى الفتح

– لقد كانوا يراقبونني عبر كاميرات للتصوير خلال العملية

– ألم تسلمهم الشريحة؟

– بل سلمتهم إحداها

– كيف؟

– فلتعد بذاكرتك إلى ما قبل إجراء عملية منار .. لقد أقنعتك آنذاك أن تصنع شريحتين احتياطيتين

– بلى .. لقد أخبرتني أن الشرائح قد تتلف أثناء العملية و..

– لم يكن هذا هو السبب

– وماذا كان السبب إذن؟

– لقد أردت الاحتفاظ بهما لابنتي منى

حملق الجميع في وجه الصغيرة منى بينما تابع الدكتور زاهر حديثه وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

– نعم .. إنها لا ترى

ثم رفع إحدى راحتيه أمام عينيه وأغرقت دموعه كلتا وجنتيه وهو يستطرد:

– ويداي هاتان هما السبب .. يداي الآثمتان هما السبب

اقترب عمرو منه وربت على أحد كتفيه وهو يقول:

– إنني آسف يا دكتور

– لا عليك يا عمرو .. إنني أقدر موقفك

وصمت لبرهة ثم تابع قائلا:

منذ سنوات خمس كانت أبواب الشهرة تتفتح أمامي .. انشغلت بها وأهملت ابنتي .. تركتها مع مربية غبية

قال عمرو في تأثر:

– وأين كانت والدتها؟

– لقد توفيت أثناء ولادتها

– يا لها من مسكينة

– لقد أصيبت الصغيرة في عينيها وأخفت المربية عني ذلك حتى تأزمت المشكلة وكان لابد من إجراء عملية فورية

مسح دموعه المنهمرة بمنديله وهو يتابع:

– نصحني الكثيرون أن أعهد بالعملية لزميل ولكن عنادي وثقتي الذائدة في نفسي جعلتني أصر على إجرائها بنفسي

– وهل أجريتها؟

– ما أن دخلت إلى حجرة العمليات حتى أدركت أنهم كانوا على حق .. لقد كنت كمن يجري جراحة لنفسه .. حبي الشديد للفتاه جعل المشرط يهتز في يدي .. حرصي الشديد على ألا أؤذيها جعل أعصابي تهتز بل جسدي بالكامل مما تسبب في فشل العملية و..

تهدج صوته ولم يستطع مواصلة حديثه وراح يبكي في مرارة .. اتجه عمرو نحوه وربت على أحد كتفيه وهو يقول:

– إنها إرادة الله يا دكتور

قال من بين دموعه:

– لقد كانت العملية الوحيدة الفاشلة في حياتي

– اهدأ يا دكتور .. اهدأ أرجوك

– لقد كان بعض المرضى يطلقون علي " إله العيون " حتى أنني وصلت إلى درجة من الغرور تخيلت فيها أنني قادر على عمل المعجزات لكن الله أراد أن يفيقني من غروري

ثم رفع كلتا راحتيه أمام عينيه وهو يهتف في مرارة:

– وبيدي هاتين تسببت في تعاسة ابنتي

– ولماذا لم تحاول إصلاح ما فسد بعملية أخرى يا دكتور؟

– لقد تسبب نزيف حدث من جراء العملية في ضعف ضخ الدم إلى الشبكية مما أدى إلى ضمورها ولم يكن هناك من حل

ورفع عينيه الدامعتين نحو عمرو وهو يستطرد:

– حتى جئتني باختراعك الذي أيقظ الأمل بداخلي من جديد

– ولكنك لم تكن مقتنعا في البداية

– لقد أظهرت عدم اقتناعي لأختبر مدى ثقتك من نجاح الشريحة

– ولماذا لم تطلب مني شريحتين لابنتك مباشرة؟ .. هل كنت لأعزهما عنك يا دكتور؟

– لقد منعتني عزة نفسي أن أطلبهما منك مباشرة وخاصة مع انشغالك بعملية ابنتك .. سامحني يا صديقي .. لا يمكنك أن تتصور مدى عذابي كلما نظرت في عيني ابنتي

اقترب عمرو من الدكتور زاهر وربت على أحد كتفيه وهو يقول:

– إنني أكثر من يستطيع تفهم موقفك يا دكتور .. ابنتك ابنتي والدنيا بأكملها لا تكفي لرد جميلك .. سأصنع لك شريحة أخرى بدلا من تلك التي استولى عليها الأوغاد لتجري العملية لابنتك في أسرع وقت ممكن

تدخل المقدم شريف في الحديث قائلا:

– لا داعي لذلك يا عمرو فقد عثر رجالنا على الشريحة في مكتب السفير

انهمرت دموع الفرحة من عيني الدكتور زاهر وهو يقول:

– لا أدري كيف أشكركما .. لا أدري كيف أشكركما

* * *

دلف الأستاذ حامد إلى حجرة ريهام في المستشفى ثم أغلق بابها خلفه واقترب من ابنته وهو يقول مهللا:

– ريهام حبيبتي .. لدي مفاجأة ستسعدك

قالت في حزن:

– الشيء الوحيد الذي يسعدني لو تركتني لأموت يا أبي

– لن يكون هذا رأيك بعد دقيقة من الآن

ثم أسرع يفتح باب الغرفة وهو يقول:

– ما رأيك في تلك المفاجأة؟

رفعت ريهام عينيها نحو مدخل الحجرة ولم تصدق عينيها .. مستحيل .. .. هل يمكن أن تنتهي آلامها دفعة واحدة؟ .. كان عمرو يقف عند مدخل الحجرة وهو يحمل منار بين ذراعيه حملقت ريهام بهما .. هتفت الصغيرة وهي تفتح ذراعيها:

– أمي حبيبتي

انحنى عمرو يضع الصغيرة على الأرض وما كادت أن تلمسها بقدميها حتى راحت تعدو نحو أمها .. لم تنتظر ريهام حتى تصل الصغيرة إليها ..

أسرعت تنتزع الغطاء من فوق جسدها وتلقي به بعيدا ثم نهضت من فراشها وراحت تعدو نحوها وانحنت ترفعها بين ذراعيها وراحت تقبل جبينها ووجنتيها وتضمها إلى صدرها في قوة بينما غرقت وجنتاها بدموع تختلف عن كل ما سبقها من دموع .. دموع تعكس سعادة الدنيا كلها .. دموع يطلقون عليها دموع الفرح

هتفت في سعادة قائلة:

– ابنتي حبيبتي

– لقد افتقدتك كثيرا يا أمي

عادت تقبلها من جديد وهي تقول:

– ليس بأكثر مما افتقدتك يا حبيبتي

اقترب عمرو منهما وهو يقول:

– وماذا عني أنا؟

أنزلت الصغيرة على الأرض ثم نظرت في عينيه مباشرة وهي تقول:

– أحبك!

أمسك بإحدى يديها بين راحتيه وهو يقول:

– ليس بأكثر من حبي لك يا أميرتي

– لماذا تخليت عني؟

– لم يكن بيدي

– بيد من إذن؟

– إنه القدر

– هل تعدني ألا تبتعد عني ثانية؟

ثم ابتسمت من بين دموعها وهي تستطرد:

– أم أقول ثالثة؟

– أعدك ولكن بشرط

– ما هو؟

– أن تعدينني ألا تحاولي الانتحار مرة أخرى

– أعدك

– مهما كان السبب؟

– مهما كان السبب

– لا أتصور الحياة بدونك

– إنني أعتذر عن كل ما بدر مني

– فلننسى الماضي وننظر إلى المستقبل

– فلندعو الله أن ينسانا الماضي

– ما دمت معي لا تفكري في أي شيء

نظرت الصغيرة نحو جدها وهي تبتسم وتقول:

– يا للحب! .. لقد نسوني يا جدي .. لقد نسوني تماما

* * *

نهض رئيس الجمهورية عن مكتبه وراح يشد على يد عمرو في قوة وهو يقول في حماس:

– مرحبا بالبطل

– ليس إلى هذا الحد يا سيادة الرئيس

جلس الرئيس إلى مكتبه وهو يشير إلى أحد المقاعد قائلا:

– تفضل بالجلوس يا ابني

جلس عمرو بينما استطرد الرئيس قائلا:

– سيذكر التاريخ دوما أنك من أعاد التوازن إلى المنطقة وأعاد إلى العرب عزتهم يا ابني

– أشكرك يا سيادة الرئيس

– بل أنا من يشكرك ومصر كلها تشكرك على ما فعلت من أجلها

– لقد أديت واجبي فحسب يا سيادة الرئيس

– تأكد أن وطنك لن ينسى جميلك إلى الأبد

– لقد سبق وطني بالجميل يا سيادة الرئيس .. يكفي أنني عشت في كنفه كل تلك السنوات يغمرني بالأمان

– بالمناسبة فلتستعد للعودة إلى منزلك مع الأسرة

– الآن يا سيادة الرئيس؟

– لقد أعلنت الشرطة عثورها عليكم .. هل أعجبتك الحياة داخل الأروقة السرية للمخابرات؟

– هناك أشعر بالأمان على الأقل

– وهل ستقضي بقية عمرك بداخلها يا ابني؟

– على الأقل حتى تهدأ الأمور

– أريدك أن تطمئن تماما

– كيف أطمئن يا سيادة الرئيس بعد أن فتحت على نفسي أبواب جهنم؟

– تأكد أننا مستعدون أن نفديك بأرواحنا

– إنني متأكد من نبل أخلاقكم يا سيادة الرئيس ولكنني لن أشعر بالطمأنينة على عائلتي هكذا

– تأكد أننا سنحل تلك المشكلة بأسرع مما تتصور

– أشكرك يا سيادة الرئيس

– هل انتهيت من صنع الجهاز؟

– وسلمته إلى مدير المخابرات يا سيادة الرئيس

– رائع

– ولكنني أخشى شيئا يا سيادة الرئيس

– مم تخشى يا ابني؟

– لقد آلمني ضميري كثيرا حين جربته فتسبب في كوارث عديدة وأخشى أن يستخدم في غير محله

– مصر لم ولن تعتدي على أحد يا ابني إنه سلاح ردع فحسب ووجوده في حوزتنا سيجعلنا في أمان وسيجعل العالم يحسب لنا ألف حساب

– هل أطمئن يا سيادة الرئيس؟

– فلتطمئن ولتهدأ بالا يا ابني

– ألن تجربونه؟

– ليس في الوقت الحالي

– لماذا؟

– الظروف الدولية لا تسمح بذلك في الوقت الراهن .. ربما أمكننا فيما بعد

– كل ما أرجوه هو ألا يكون لجهازي ضحايا جدد

– بإذن الله يا ابني .. إننا حتى لن نعلن عن وجوده معنا وسننتظر الوقت المناسب

ثم ابتسم وهو يضيف:

– بالمناسبة لقد أمرت لك بمكافأة قدرها مليوني جنيه

ابتسم عمرو في سعادة وهو يقول:

– لا أدري كيف أشكرك يا سيادة الرئيس

– إننا نعلم بالطبع أنه مبلغ تافه لو قورن بالعشرة ملايين دولار التي عرضها عليك الأمريكان ولكن ..

– يكفيني أنني ساهمت في بناء العزة لوطني يا سيادة الرئيس

– ووطنك لن ينسى لك ما فعلت يا ابني .. لن ينسى أبدا

* * *

ارتدت الطبيعة أجمل أثوابها وبدا الجو ساحرا والسماء صافية والخضرة تلون معظم الأرجاء بدا وكأن الطبيعة ترسم بألوانها لوحة غاية في الإبداع .. لوحة تليق بيوم من أجمل أيام شهر الربيع .. ساد المرح كافة الأرجاء داخل حدائق الحيوان بالجيزة .. بدا كل شيء هادئا لم يكن يسمع سوى أصوات الحيوانات وخرير الماء وبعض الأطفال يلعبون ويتصايحون هنا وهناك .. افترشت ريهام مع أبيها العشب الأخضر بينما انهمك عمرو في اللعب بالكرة مع منار.. بدت الصغيرة في قمة سعادتها في ذلك اليوم .. لم يعكر صفو ذلك اليوم الجميل سوى تلك العيون التي كانت تتلصص عليهم وتراقبهم من بعيد .. وقعت عيني عمرو على أحد الأشخاص يراقبه وتركزت عليه لفترة وجيزة تصاعد خلالها قلقه إلى أوجه ثم ما لبث أن هتف ينادي منار التي كانت تركض خلف الكرة التي ابتعدت كثيرا:

– منار .. تعالي إلى هنا

توقفت منار عن الركض ونظرت إليه في تردد فصاح بها:

– قلت تعالي إلى هنا

ظلت الصغيرة في ترددها وهي تنظر إلى الكرة التي تبتعد تارة والى أبيها تارة فهتف بها في عصبية:

– ألا تسمعين؟

تغلبت الصغيرة على ترددها وراحت تركض نحوه وتوقفت أمامه فأمسك بإحدى يديها وجذبها في عصبية وهو يقول:

– هيا بنا

سارت الصغيرة معه وهي تنظر خلفها وتتابع الكرة التي ابتعدت كثيرا وتقول:

– والكرة يا أبي؟

– سأشتري لك أخرى جديدة

أسرعت ريهام نحوهما ومن خلفها الأستاذ حامد وهي تقول في قلق:

– ماذا حدث يا عمرو؟ .. ماذا حدث؟

– لا .. لا شيء .. هيا بنا

– سأحضر أمتعتنا

تلفت عمرو حوله في قلق وهو يقول:

– لا .. لا وقت لذلك

وأمسك بإحدى يديها وجذبها وهو يقول:

– هيا .. هيا بنا

قال الأستاذ حامد في حيرة:

– ماذا حدث يا ابني؟

– لا شيء .. لا شيء يا عمي .. ولكن لابد وأن نذهب الآن

راحوا يحثون الخطى نحو باب الحديقة وقد فاض القلق على وجوههم .. وفي الخارج كان أحدهم يجلس إلى المقعد الخلفي لسيارة رياضية صغيرة ويقول لقائدها في صرامة:

– استعد .. الهدف قادم

أدار الرجل محرك السيارة وانتظر حتى خرج عمرو وأسرته من باب الحديقة ثم انطلق بها واقتربت السيارة من الهدف ..

واقتربت ..

واقتربت ..

صارت على بعد أمتار من الهدف ..

لمح عمرو فوهة مدفع رشاش وقد برزت عبر نافذة السيارة الخلفية فأسرع يقف أمام أفراد أسرته ويحميهم بجسده وهو يرفع كلتا ذراعيه في مستوى كتفيه ويصرخ بكل قوته .. يصرخ بكل ما في الدنيا من لوعة:

– لاااااا

وانطلقت الرصاصات في غزارة ..

تلقى جسده عشرات الرصاصات قبل أن يسقط بينما واصلت الرصاصات طريقها نحو أفراد أسرته ..

سقطت ريهام ..

ثم الأستاذ حامد ..
وأخيرا سقطت منار ..
وسالت الدماء غزيرة على الطريق ..
دماء أسرة بأكملها ..
أسرة بطل

* * *

في قلب صعيد مصر في قلب أجمل مدن محافظة قنا في قلب مدينة نجع حمادي وفي إحدى أجمل بناياتها كان الجميع يجلسون في هدوء تام ينصتون إلى التلفاز الذي يذيع بيانا عن الحادث كان المذيع يقول في أسى:
– لقد اغتالت يد الإرهاب الآثمة أسرة بأكملها من بينها طفلة صغيرة لم تتعدى الخامسة من عمرها .. أسرة كل ذنبها أنه قد تصادف وجودها في مكان الحادث الإرهابي الأليم .. أسرة لم تتمنى من الدنيا إلا أن تعيش في سلام ولكن القدر أبى أن يمنحها إلا الموت برصاص الغدر .. أسرة أرادت أن تقضي يوما سعيدا تتنزه في حديقة الحيوان فقضي عليها في أحضان الخسة وانعدام الضمير .. لم يكن أفراد تلك الأسرة يدرون أنهم سيقضون بقية يومهم في لحودهم وقد واراهم الثرى وغطاهم التراب و..
أغلق المقدم شريف زيدان التلفاز بواسطة جهاز التحكم عن بعد وهو يقول:
– لقد كنت رائعا يا عمرو.. لقد أديت دورك ببراعة
ابتسم عمرو وهو يقول:
– ليس إلى تلك الدرجة يا سيد شريف

– لو كان الأمر بيدي لمنحتك جائزة الأوسكار .. يبدو أنك متعدد المواهب يا رجل

– أشكرك يا سيد شريف

ألقى المقدم شريف بنظرة على منار التي تجلس إلى جوار أبيها وهو يقول:

– والصغيرة منار أدت دورها بمنتهى البراعة .. لقد كنت أخشى أن ترتبك فتفشل الخطة

قبل عمرو إحدى وجنتي الصغيرة وهو يقول:

– لقد نضجت قبل الأوان .. فما مر بها ليس بالقليل

تدخلت ريهام في الحديث قائلة:

– يبدو أنكما نسيتموني تماما في حفل توزيع الأوسكار الذي تقيمانه

ابتسم المقدم شريف وهو يقول:

– كيف ننساك يا سيدتي؟ .. لقد كنت رائعة .. أنت تستحقين ما هو أكثر من الأوسكار

ثم نظر نحو الأستاذ حامد وهو يستطرد:

– إنكم جميعا تستحقون مهرجانا بكل جوائزه

قال الأستاذ حامد وهو يبتسم:

– وأنت تستحق ما هو أكثر يا سيادة المقدم .. لقد تعبت معنا كثيرا

قال المقدم شريف في حماس:

– يكفيني صداقة أسرة رائعة مثلكم

ثم أخرج من حقيبته مجموعة من الأوراق وسلمها لعمرو وهو يقول:

– ها هي بطاقاتكم وشهادات ميلادكم بأسمائكم الجديدة .. الآن يمكنكم أن تعيشوا في أمان فمنذ الآن لن يبحث أحدهم عنكم أبدا

– الحمد لله .. ولكن ماذا عن الدكتور زاهر؟

– لقد نفذنا معه سيناريو مشابه بعد أن نجحت العملية التي أجراها زميل له لابنته وهو يقيم الآن في منزل قريب منكم بعد أن قرر اعتزال الطب والتفرغ لتربية ابنته

– لابد من زيارته إذن لتقديم التهاني

– بالطبع .. وبالمناسبة هذا المنزل بالإضافة إلى الحديقة التي تحيط به هدية من سيادة الرئيس

ثم أخرج مجموعة من الأوراق من حقيبته وسلمها إلى عمرو وهو يستطرد:

– وها هي عقود الملكية بأسمائكم الجديدة

– فلتشكر سيادة الرئيس بالنيابة عني

– لن أفعل

– لماذا؟

– لأنك ستشكره بنفسك حين يتصل للاطمئنان عليكم

– متى؟

ارتفع رنين جرس الهاتف في تلك اللحظة فهتفت ريهام في سعادة غامرة وهي تنهض عن مقعدها وتندفع نحو التليفون:

– إنه حتما سيادة الرئيس

* النهاية *

* * *

www.riwaya.ml

أبواب جهنم

– ما سر ذلك الجهاز الذي سيقلب موازين القوى في العالم ويجعل من العرب أقوى قوة ضاربة في العالم؟

– هل يمكن لعمرو الشناوي أن يضحي بآلاف البشر ويتسبب في كارثة مروعة لاختبار قوة سلاحه؟

– لماذا يهدد الأمريكيون بنسف القاهرة ومحوها من الوجود ؟

– لماذا صدرت الأوامر بتهريب مجموعة من الإرهابيين من مبنى مديرية الأمن ؟

– لماذا يطالب عمرو الشناوي المخابرات المصرية بمهاجمة السفارة الإسرائيلية؟

– لماذا تفتحت أبواب جهنم في وجه عمرو الشناوي ؟ وهل سيتمكن من إغلاقها أم أنها ستبتلعه وتدمر أسرته وتقضي على كل أحلامه ؟